تناسب المعاني في مخالفة الضمير لمرجعه في البيان القرآني

البحث مدعوم من تمويل المشروعات
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

د/ أحمد أحمد السيد شتيوي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
في كلية الدراسات والعربية جامعة الأزهر بالمنصورة

البحث ممول من جامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على من أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن علم التناسب القرآني باب واسع في البلاغة العربية ،وقد دُرست بعض صوره في علم البديع، وما يزال بحاجة إلى دراسات متتابعة لإبراز قيمه الجمالية والبيانية من خلال صوره التعبيرية المتنوعة في القرآن الكريم ، وتُقدم هذه الدراسة إحدى هذه الصور التي تعنى بإبراز التناسب بين ضمير الغائب ومرجعه المختلف عنه في الظاهر من حيث عدم ذكره ، أو اختلافه عنه في نوعه ، أو عدده،أو موقعه، وإدراك هذا التناسب يحتاج إعمال الفكر ، وطول النظر،والتدبر المأمور به في محكم التنزيل، والتمرس بالتراكيب العربية ، والنظر في القرائن اللفظية ، أو الحالية ،أو السياق ،وفقا لضوابط الفهم والتدبر، واستنباط المقاصد ، وهذا لا يقتصر على النظر في الآية الواحدة ، أو السياق الجزئي، بل قد يمتد إلى أكثر من آية لتمام المعنى في غالب أحواله ويتضح هذا من خلال النماذج التي يقف عليها البحث.

وتؤكد الدراسة على أن عود الضمير على مخالفه ، كعدم ذكره اكتفاء بمعونة السياق،وقرائن الأحوال، أو عوده على مفسر يختلف عنه في النوع ، أوالعدد، أو تأخر مفسره عنه نهج عربي ، سائغ في اللغة العربية ، وأنه ورد كثيراً في القرآن الكريم ، ورغم خروج الضمير في علاقته بمفسره على خلاف مقتضى الظاهر،إلا أن وراء كل ذلك أغراض بلاغية

،ومقاصد معنوية ، وأن أكثر لطائف القرآن مودعة في ترتيبه، وروابطه.

دوافع اختيار الموضوع، وأهميته

لقد دفعني إلى اختيار موضوع هذا البحث عدة أسباب منه:

أولا: الرغبة في الكشف عن أحد جوانب الإعجاز القرآني من خلال دراسة بعض أساليبه الموافقة للغة العرب التي نزل بها القرآن

ثانيا: أنه لم ينل العناية التامة به فقصدت القيام بهذا العمل ،ويكون تمهيدا لدراسات قادمة في هذا المجال يقوم بها الباحثون في البلاغة القرآنية.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إثبات ما يلي:

أولا: أن مجئ الضمير مخالفا لمرجعه في الظاهر أحد وجوه الإعجاز القرآني.

ثانيا: أن فيه دليلا على تلاحم أجزاء القرآن ، واتساق مبانيه ، وإن اختلفت في الظاهر.

ثالثا: أنه وسيلة ترسيخ الإيمان في القلب ، وزيادة في التصديق.

رابعا: الرد على من نفى التناسب بين آيات القرآن الكريم عموما ، وبين الضمير ومرجعه المخالف له في الظاهر.

خامسا: كشف التناسب بين المعاني في التراكيب المتباعدة، وإبراز التلاحم المعنوي بين الضمير ومرجعه المخالف له في الظاهر.

سادسا: إبراز الرابط الخفي بين الضمير ومفسره المخالف له في لظاهر لكونه الأبعد عنه في الذكر ،أو الذي لم يتفق معه في النوع أو الجنس، أو عدم النص عليه في الكلام ، وفهمه من السياق والفحوى.

سابعا: أن ذكر المرجع بعد الضمير، أو مخالفته له في العدد له أغراض

بلاغية ، ومقاصد معنوية ، ويتضح هذا من خلال التطبيق الشواهد المختارة.

التساؤلات أو الفرضيات:

يبرز أمام البحث عدة تسؤلات هي:

١ــ ما مدى التناسب بين الضمير ومرجعه؟

٢ــ ما صور هذا التناسب ؟

٣ــ ما الأغراض البلاغية المفادة من وراء مخالفة الضمير لمرجعه؟

٤ــ ما مدى كثرة هذه الظاهرة وقلتها في القرآن الكريم ؟

٥ــ ما الموضوعات التي يرد فيها هذا الموضوع؟

٦ــ هل توجد صلة بين هذا الأسلوب القرآني وما ورد في كلام العرب قبل نزول القرآن؟

الدراسات السابقة

لم يتناول أحد هذا الموضوع من وجهة نظر بلاغية ــ فيما أعلم ــ فأردت القيام به ، وأورد فيما يلي بعض الدراسات السابقة التي تناولت بعض جوانب الموضوع في التفسير، والنحو ، وأصول اللغة.

الدراسة الأولى: (اختلاف الدلالة لاختلاف عود الضمير في القرآن الكريم دراسة نظرية وتطبيقية) وهي رسالة علمية نالت بها الباحثة/ فاطمة أحمد السيد درجة العالمية الدكتوراه في قسم أصول اللغة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة ٢٠٠٤م جامعة الأزهر

وتناولت فيها الباحثة عود الضمير لمفسر واحد أو أكثر ، واختلاف العلماء والمفسرين في عود الضمير، وأثر ذلك في الدلالة ، لكنها لم تتطرق لموضوع بحثنا .

الدراسة الثانية : مرجع الضمير في القرآن الكريم مواضعه

وأحكامه وأثره في المعنى والأسلوب للدكتور/ محمد حسنين صبرة وهي رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم بالقاهرة ، وصدرت في دار غريب للطباعة والنشر بالقاهرة عام ٢٠٠١م.

واقتصرت الدراسة على نوع واحد من أنواع الضمير في القرآن الكريم، وهو ضمير الغائب المبني على حرف الهاء في جميع القرآن الكريم .

وقد قسم الباحث كتابه هذا قسمين:

الأول : دراسة حول مرجع ضمير الغائب.

والآخر: دراسة تطبيقية فيها بيان مرجع ضمير الغائب في القرآن الكريم

وقد اجتهد في تحديد مرجع الضمير المختلف فيه من خلال قراءاته لكتب التفسير والقراءات والنحو ويغلب على الدراسة الحصر مع الإشارات الخفيفة لجانب المعنى ،وحسبه أنه اجتهد ، وفتح مجالا لدراسات مختلفة في هذا الموضوع فجزاه الله خيرا.

الدراسة الثالثة : مرجع الضمير في القران الكريم صوره وقواعده دراسة تحليلية تطبيقية في ضوء معطيات الدرس النحوي الحديث رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم بالفيوم القاهرة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م قسم النحو والصرف والعروض ،للباحث :صلاح عبد المعز أحمد العشيري

وتناولت الدراسة: صور مرجع الضمير،و تعدد مرجع الضمير في القرآن الكريم، والرتبة بين الضمير ومرجعه، والمطابقة بين الضمير ومرجعه، وقد اهتم الدراسة كسابقتها بالدرس النحوي دون التطرق إلى جانب المعنى إلا نادرا.

بحوث ودراسات أخرى:

١ـ الضمائر المحتملة في القرآن الكريم د٠ ملفي بن ناعم الصاعدي مجلة الجامعة الإسلامية عدد (١٢٧) سنة ٣٧ في ١٤٢٥هـ واقتصرت الدراسة

بالتطبيق على سورة البقرة ،ووعد بإكمال البحث في القرآن الكريم فيما بعد .

٢ـ فلسفة الضمير للأستاذ / علي النجدي ناصف مجلة مجمع اللغة العربية العدد (٢٠) ١٩٦٦م

٣ـ من أسباب اختلاف المفسرين المتعلقة بمرجع الضمير ، مجلة الحكمة العدد (٣٤) محرم ١٤٢٨هـ للدكتور / صالح ناصر الناصر قسم الثقافة الإسلامية جامعة الملك سعود

أما منهج البحث فيقوم على دراسة الآيات والشواهد القرآنية التي يقف عليها وفق نظرية (النظم) فلا يقف عند حد الضمير ومرجعه في الجملة الآية فقط ، وإنما يدرسها في إطار السياق العام للوقوف على الغرض البلاغي وراء المخالفة ، ويستعين البحث في التناول بالمصادر والمراجع المختلفة منها: كتب إعراب القرآن ، ومعانيه ، والتفاسير ،وكتب النحو ، واللغة ، وكتب القرءآت ، وغير ذلك من مصادر المعرفة

يقوم البحث على دراسة(التناسب المعنوي لضمير الغائب المخالف لمفسره في القرآن الكريم في الظاهر) بالتطبيق على النماذج التي يقف عليها البحث وفق التقسيمات المقترحة مع الالتزام بالمنهج العلمي القائم على التأصيل والتتبع لجهود العلماء والمفسرين في بيان التناسب بين المعاني التي ظاهرها المخالفة بين أجزائها ، والربط بين آراء العلماء والمفسرين واستخلاص المفيد منها،والجمع بين المنهج التحليلي، والوصفي، والجمع ، والتصنيف، والاستنباط، والاقتصار في التحليل على بعض الشواهد التي تقف عليها الدراسة .

خطة البحث

يتكون البحث من ثلاثة فصول ، تسبقهما مقدمة ، وتمهيد:

يذكر في المقدمة دوافع اختيار الموضوع ، وأهدافه ، والدراسات السابقة ، ومنهجه ، وخطته ويتناول في التمهيد تفسير بعض المصطلحات ، ووظائف الضمير في التركيب.

أما فصول الدراسة فتتكون من ثلاثة فصول

الأول: بعنوان : مخالفة الضمير لمرجعه في الموقع ، ويكون ذلك في مبحثين:

أولهما: عود الضمير على أبعد مذكور .

ثانيهما: عود الضمير على متأخر عنه في اللفظ والرتبة.

الفصل الثاني بعنوان (مخالفة الضمير لمرجعه في العدد)

ويشتمل على مبحثين:

أولهما:مخالفة الضمير لمرجعه في الإفراد والتثنية والجمع في الظاهر.

ثانيهما: عود الضمير على أحد المتعاطفين دون الآخر

الفصل الثالث : بعنوان: (مخالفة الضمير لمرجعه في الذكر والنوع) ويتضمن مبحثين:

الأول: عود الضمير على غير مذكور غناء بفحوى الكلام وسياقه

الثاني: عود الضمير على مخالفه في التذكير والتأنيث في الظاهر.

ويذيل البحث بخاتمة يذكر فيها أهم النتائج التي توصل إليها

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أحمد أحمد السيد شتيوي

التمهيد

المصطلحات والمفاهيم:

التناسب في اللغة : التشابه. [١]

وفي الاصطلاح : علم تعرف منه علل الترتيب، ،أو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر.

"والمناسبة... الربط بين شيئين بأي وجه من الوجوه ، والمناسبة في كتاب الله : هي البحث عن أوجه الارتباط بين أجزاء الآية وجارتها ،أو بين الآيات في مجموع السورة الواحدة ،أو بين السورة والسورة[٢]

المعاني

معنى الشئ: مماثلته ومشابهته دلالة ومضمونا ومفهوما ، ومعنى الشئ فحواه ومقتضاه ومضمونه

والمقصود هنا : ما يجري في مسارب الألفاظ ، ويربط بين أعناقها، وهو ما يدركه أهل العلم والتدبر

البيان :عبارة عن إظهار المتكلم المراد للسامع[٣] والمقصود بالبيان القرآني: نظمه وتأليفه

المرجع: المآب ، والمرجع العقب والرجوع ،والمبين للغامض ، والمزيل الإبهام

الاختلاف: التنوع والتعدد في بيان المعنى والمقصد

الضمير في اللغة والاصطلاح :

الضمير في اللغة : " المستور (فَعيل) بمعنى (مفعول) أطلق على العقل لكونه مستوراً عن الحواس ". [٤]

---

(١) اللسان مادة : نسب ، والصحاح مادة نسب

(٢) ينظر: دراسات في التفسير الموضوعي د/ زاهر الألمعي صـ ٧٧

(٣) ينظر: التعريفات للجرجاني صـ٦٧

(٤) الكليات لأبي البقاء الكفوي : صـ ٥٧١ (ضمر)

وعرفه ابن منظور بأنه : " السِّرُّ وداخلُ الخاطرِ ، والجمع الضَّمائرُ، والضمير الشيء الذي تُضمره في قلبك تقول : أَضْمَرتُ صَرْفَ الحرف إذا كان متحركاً فأسكَنْته، وأَضْمَرْتُ في نفسي شيئاً . . .وأَضْمَرْتُ الشيء : أَخْفَيته "(١)

فالضمير في اللغة يعني الشيء الخفي المضمر ،أو ما يستره الإنسان في نفسه، ولم يطلع عليه أحد

الضمير في الاصطلاح :

ما وضع لمتكلم ، أو مخاطب ، أو غائب تقدم ذكره لفظاً ، أو معنى ، أو حكماً . (٢) .

ب. وظائف الضمير

يقوم الضمير بعدد من الوظائف في التراكيب منها:

١ــ أنه أحد وسائل الربط والتماسك بين الأجزاء " لا شك أن الضمائر تلعب دوراً هاماً جداً في علاقة الربط ، فعودها إلى مرجع يغني عن تكرار لفظ ما رجعت إليه ، ومن هنا يؤدي إلى تماسك أطراف الجملة ، ومن المعروف أن الضمير يعود مثلاً من جملة الخبر على المبتدأ ، ومن جملة الحال على صاحب الحال ، ومن جملة النعت على المنعوت ، ومن جملة الصلة على الموصول ، فيجعل الجملة في كل حالة من هذه واضحة الوظيفة غير مُعَرَّضَةٍ لِلَبْسٍ ".(٣)

٢ــ الإيجاز والاختصار ، إذ به تستغني بالحرف الواحد عن الاسم بكماله ، فيكون ذلك الحرف كجزء من الاسم . (٤)

٣- دفع اللبس وتحديد محل الحديث ؛ لأن ضمير التكلم والمخاطب

---

(١) لسان العرب لابن منظور : ٤ / ١٣٧ (ضمر) وينظر:معجم العين للخليل مادة : ضمر ٣/ ٢٤، والقاموس المحيط للفيروزابادي : ٢/ ٧٥

(٢) شرح الرضي على الكافية

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها : ص ١١٣

(٤) ينظر : شرح المفصل لابن يعيش : ٣ / ٨٤

صاحبه حاضر مشاهد ، وضمير الغائب مذكور في الأسلوب ،أو مفهوم منه على وجه من الوجوه ، فيكون كالحاضر المشاهد؛ولأن الأسماء الظاهرة كثيرة الاشتراك ، فإذا قلت : قابلت زيداً ، وأكرمت زيداً ، جاز أن يتوهم في (زيد) الثاني أنه غير الأول . وإزالة الالتباس بين الأسماء الظاهرة يكون باستعمال الصفات ، والضمائر لا يقع فيها لبس ، فاستغنت عن الصفات ؛ لأن الأحوال المقترنة بالضمائر تغني عن الصفات ، كالحضور ، والمشاهدة بالنسبة للمتكلم ، والمخاطب ، وتَقَدُّم ذكر الغائب الذي يجعله بمنزلة الحاضر المشاهد في الحكم . (١)

٤ــ الإيضاح بعد الإبهام ، تعظيماً للمتحدث عنه ،وحملاً للسامع على استشرافه والاشتياق إليه ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ (٢)﴾

فذكر الضمير الغائب أولا، دون النص على مرجع سابق ، وهذا خلاف المعهود ، ولهذا يتساءل السامع عنه ، ويستشرف المراد به ، ويتشوف للمقصود، فإذا جاء المرجع ،وكشف الغامض، استراحت نفسه، وحصل على مبتغاه

وهذا اللون من التعبير فيه دعوة للمتلقي للبحث عن الأسرار والأغوار ، والتفتيش عن الخفايا والدقائق للوصول إلى المراد من الكلام فإذا ما توفر له ذلك ثبت المعنى في نفسه ، واستقر مضمونه في وجدانه وهذا هدف بلاغي رئيس.

وغير ذلك من الوظائف والمزايا التي يكشف عنها البحث في أثناء التحليل والتطبيق على آي الذكر الحكيم

---

(١) ينظر : شرح المفصل لابن يعيش : ٣ / ٨٤ ، وقضايا الضمير في النحو العربي : ص ١١

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٦

الفصل الأول

بعنوان : مخالفة الضمير لمرجعه في الموقع

ويتضمن مبحثين:

أولهما: عود الضمير على أبعد مذكور

ثانيهما: عود الضمير على متأخر عنه في اللفظ والرتبة

المطلب الأول:عود الضمير على أبعد مذكور

الأصل في اللغة أن يعود الضمير على أقرب مذكور إذا تعدد المرجع؛ لئلا يلتبس الأمر على السامع،ويزول الإبهام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾[1] فالضمير في ﴿أُكُلُهُۥ ﴾ يعود إلى ﴿ ٱلزَّرْعَ ﴾؛ لكونه الأقرب في الذكر،ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾[2] الضمير في ﴿يَفْعَلْه ﴾ يعود إلى الإسرار لكونه الأقرب، كما قال أبو حيان، وقال ابن عطية يعود إلى الاتخاذ[3]

وهذه القاعدة غير مطردة ؛إذ لو وُجد في سياق الكلام ما يدل على أن المرجع هو غير الأقرب ، كان أولى أن يعود على الأبعد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4]

الضمائر في ﴿ ذُرِّيَّتِه ﴾ ﴿ وَءَاتَيْنَٰه ﴾ ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ تعود إلى إبراهيم ــ عليه السلام ــ وهو غير الأقرب ؛لأنه المحدث عنه من أول القصة إلى آخرها [5]،يؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

---

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١٤١

(٢) سورة الممتحنة من الآية:١

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥١

(٤) سورة العنكبوت ،الآية : ٢٧

(٥) ينظر: التذييل والتكميل ٢/ ٢٥٢،والهمع ١/ ٢١٧، والضمائر في اللغة العربية صـــ١٠٣

نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾[١]

وكما في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾[٢]

الضمير في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ يصلح أن يعود لأحد الرجلين ، وللنخل والزرع والنهر ، لكن الثمر لايكون للنهر وهو أقرب مذكور، وإنما عوده إلى أحد الرجلين أولى من عوده إلى النخل والزرع [٣]

ومن شواهد عود الضمير على غير الأقرب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾[٤]

اختلف في عود الضمير ﴿وَإِنَّهُۥ ﴾ فذكر قتادة، وابن عباس، والتبريزي وغيرهم أنه عائد إلى الله ؛لكونه أقرب المذكورين

وقال جمهور المفسرين إن الضمير راجع إلى الإنسان ؛لأنه لا يترجح القرب إلا إذا تساويا من حيث المعنى ، والإنسان هنا هو المحدث عنه والمسند إليه (لكنود) ، وتناسق الضمائر لواحد مع صحة المعنى أولى من جعلهما لمختلفين ، ولا سيما إذا توسط الضمير بين ضميرين عائدين على واحد[٥]

---

(١) سورة الحديد من الآية: ٢٦

(٢) سورة الكهف الآية ٣٢-٣٤

(٣) ينظر: روح المعاني ١٥/ ٢٧٤، والبيان في روائع القرآن ١/ ٢٤٠

(٤) سورة العاديات الآية : ٦، ٧

(٥) البحر المحيط ٨/٥٠٠، وينظر: الكشاف ٦/ ٤٢٠ ، وتفسير الخازن ٤/ ٥٩٩، ونظم الدرر٢٢/٢١٦ ،وفتح القدير ٥/ ٤٨٣ وذكر البيضاوي الرأيين بلا ترجيح ينظر : تفسيره ٢/ ٦١٥

وذكر الشيخ الشنقيطي القولين مرجحًا عود الضمير على الإنسان ، وإن كان هو الأول في اللفظ بدليل قوله تعالى بعده﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[١] فإنه للإنسان بلا نزاع ، وتفريق الضمائر بجعل الأول للرب ، والثاني للإنسان لا يليق بالنظم القرآني [٢] كما أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بقوله(لشديد) بخيل ممسك لاستحالته عليه سبحانه .

وهذا التوجيه هو الراجح لمحافظته على وحدة السياق بين الضمائر المتتابعة وهناك رافد آخر وهو أن شهادة الإنسان على نفسه بالكنود ، وإقراره بكفران نعمة ربه إلزام بالحجة ، وتأكيد لفداحة الذنب ، واعتراف به في موقف الزجر والوعيد ، حيث لا سبيل بعدَ مثل هذه الشهادة الدامغة إلى تنصل من الذنب ،أو ادعاء البراءة منه [٣]

ومن مخالفة القاعدة -أيضا- الضمير المذكور بعد المضاف والمضاف إليه ، إذ به يعود إلى الأبعد ،وهو المضاف ؛لأنه المحدث عنه دون المضاف إليه، كقولك : (غلام زيد أكرمته) ، فالضمير في أكرمته يعود إلى المضاف وهو الغلام[٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ

---

(١) سورة العاديات الآية :٨

(٢) أضواء البيان ٩/ ٤٨٧، وما بعدها، وينظر من أسباب اختلاف المفسرين المتعلقة بمرجع الضمير صـــ ٥

(٣) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ١١٢

(٤) البرهان ٣/ ٣٩

(٥) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤

فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾[١]

قال الزمخشري الضمير في (منها) يعود للحفرة ،أو للنار، أو للشفا ،وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة ،وهو منها كما قال :

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ [٢]

وشفا الحفرة وشفتها : حرفها ، بالتذكير والتأنيث[٣]

ورد ابن عطية على من أجاز عوده للأقرب قائلاً:" وليس الأمر كما ذكروا ، لأنه لا يحتاج في الآية إلى هذه الصناعة إلا لو لم يجد معاداً للضمير إلا (الشفا) ، وأما معنا لفظ مؤنث يعود الضمير عليه ، ويعضده المعنى المتكلم فيه ، فلا يحتاج إلى تلك الصناعة "[٤] .

ونص أبوحيان على أن الضمير لا يعود في هذا الموضع إلى على الأبعد ، مبينا القيمة البلاغية في ذلك قائلا:" لا يحسن عوده إلا على الشفا ، لأنّ كينونتهم على الشفا هو أحد جزئي الإسناد ، فالضمير لا يعود إلا عليه . وأما ذكر الحفرة فإنما جاءت على سبيل الإضافة إليها ، ألا ترى أنك إذا قلت : كان زيد غلام جعفر ، لم يكن جعفر محدثاً عنه ، وليس أحد جزئي الإسناد . وكذلك لو قلت : ضرب زيد غلام هند ، لم تحدث عن هند بشيء ، وإنما ذكرت جعفراً وهنداً مخصصاً للمحدث عنه . أمّا ذكر النار . فإنما جيء بها لتخصيص الحفرة ، وليست أيضاً أحد جزئي الإسناد ، لا محدثاً عنها . وأيضاً فالإنقاذ من الشفا أبلغ من الإنقاذ من الحفرة ومن النار،

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٠٣

(٢) البيت للأعشى وصدره : ويشرق بالقول الذي قد أذعته ينظر: ديوانه ص ١٨٣، والكتاب ١/ ٥٢

(٣) الكشاف ١ / ٣٠٦

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥

لأن الإنقاذ منه يستلزم الإنقاذ من الحفرة ومن النار ، والإنقاذ منهما لا يستلزم الإنقاذ من الشفا . فعودُهُ على (الشفا) هو الظاهر من حيث اللفظ ، ومن حيث المعنى . ومثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على جرفها مشفين على الوقوع فيها"[١]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾[٢]

الضمير في (فيه) يعود على العذاب وهو الأبعد؛ لأنه مضاف[٣]

ومن عود الضميرعلى الأبعد قوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾[٤]

الضمير في ﴿يَفْتِنَهُم ﴾ يعود إلى فرعون ،وإن كان الأبعد ، وفسر البغوي دلالة ذلك بقوله:" وإنما قال (أن يفتنهم) ،ولم يقل أن (يفتنوهم)؛لأن قوم فرعون كانوا على مراده[٥]، لكنه هو القادر على أن يفتنهم بإيقاع العذاب عليهم ،أو بمجرد التخويف؛ ولهذا أتبع النسق القرآني ذلك بأوصاف فرعون وحده من مجاوزته الجور بقوله سبحانه:﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض ﴾ لغالب فيها قاهر ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ﴾ في الظلم والفساد ، وفي الكبر والعتوّ بادعائه الربوبية[٦]

---

(١) البحر المحيط ٣ / ٢٢

(٢) سورة الزخرف الآية: ٧٤، ٧٥

(٣) دراسات الشيخ عضيمة ق٣جـ١/٣

(٤) سورة يونس من الآية ٨٣

(٥) تفسير الخازن ٣ / ٤١٦،

(٦) ينظر: الكشاف٣/١٦٥، والتحرير والتنوير ١١/٢٦٠، والبيان في روائع القرآن ١/ ٢٤١

ـــ وقد يتعدد الضمير والمرجع فيعود بعضها إلى الأبعد ووالآخر إلى الأقرب استنادا إلى السياق ، كما في قوله تعالى﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[١] ذكر بعض العلماء أن الضمائر الثلاث في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ تعود إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – لكونه الأقرب ، ورجح كل من الزمخشري والبيضاوي ،والجمل ،والآلوسي والطاهر بن عاشور[٢] عود الضمائر جميعا إلى الأبعد ،وهو (الذات العلية)، وفي هذا إخلال بالمعنى ، إذ التعزيز والتوقير خاص بالنبي ، والله سبحانه لا يتصف بها لكونها مما لا يليق بجلاله وعظمة سلطانه ، وبنى هؤلاء العلماء قولهم على أن من فرق الضمائر فقد أبعد ،والحق الذي ينبيء عنه السياق أن الضمير في ﴿ وَتُسَبِّحُوه ﴾ يعود إلى الأبعد ، وفي﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ يعود إلى الأقرب قال جلال الدين المحلي وضميرهما لله ،أو للرسول و(يسبحوه) أي :الله[٣]

فالآية جاءت مخالفة للقاعدة وهي عود الضمير على الأقرب فقال الزركشي بعد أن ذكر الآية :" فالضمير في التعزيز والتوقير راجع إلى النبي ﷺ وفي التسبيح عائد إلى الله تعالى وهو متقدم على ذكر النبيﷺ فعاد الضمير على غير الأقرب"[٤]

يؤيد ذلك أيضا قراءة عمر بن الخطاب: (وتسبحوا الله)، كذا بالاسم

---

(١) سورة الفتح الآية : ٩

(٢) ينظر: الكشاف ٥٤٢/٤، وتفسير البيضاوي ٤٠٨/٢ ،والفتوحات الإلهية ٤/ ١٦٠، وروح المعاني ١٤٦/٢٦ ، والتحرير ١٥٦/٢٦ مجلد ١٢

(٣) تفسير جلال الدين المحلي بهامش الفتوحات الإلهية ٤/ ١٦٠

(٤) البرهان ٤/ ٣٢

الجليل مكان الضمير، وقرأ ابن عباس (وليسبحوا الله)[١]

والتسبيح في الآية بمعنى التنزيه[٢] ، أو بمعنى الصلاة لله بالغدوات والعشيات[٣] ، وهو خاص بالله تعالى،أما التعزيزوالتوقير خاص بالنبي ﷺ والمعنى على هذا التوجيه: أرسلناه إليكم لتؤمنوا به وتقوّوا من أزره ،وتعينوه على إظهار دينه على كل دين، وعلى مناصرة دعوته، وتمنعوا عنه كل ما يكيده - مبالغين في ذلك - باليد واللسان والسيف والجنان، وأن تؤثروه على أنفسكم ،ولا تجهروا له بالقول تعظيماً له وتفخيماً ولا تقدموا بين يديه، وأن تسبحوا من منّ به عليكم كل بكرة وكل عشية حمداً له وشكراً. [٤]

---

(١) المحرر الوجيز٥/ ١٢٩، روح المعاني ٩٦/٢٦

(٢) الوجوه والنظائر للدامغاني صـ ٢٧٧

(٣) جامع البيان ١١/ ٣٣٨، وتفسير البيضاوي ٢/ ٤٠٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٩٠

(٤) من بلاغة القرآن في التعبير بالغدو والآصال والعشي والإبكار ،د/ محمد عبد العليم دسوقي صـ ٣١

المبحث الثاني
عود الضمير على متأخر عنه في اللفظ والرتبة

الأصل أن يعود الضمير على متقدم لفظا ورتبة ، وهذا هو الغالب في تراكيب القرآن الكريم ،كما في قوله تعالى:﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾(١)

فقد عاد الضمير في (معه) على المبتدأ(محمد)عليه الصلاة والسلام

وقال تعالى:﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾(٢)

الضمير في (إنه) يعود إلى إسماعيل ــ عليه السلام ــ وهو متقدم في اللفظ والرتبة

وقد يعود الضمير على متأخر عنه رتبة لا لفظا ، وهذا كثير في القرآن الكريم

قال تعالى:﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾(٣)

الضمير المجرورفي (به) يعود إلى المُخرج وهو (الثمرات)،وهو متأخر

وقال تعالى:﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾(٤)

الضمير المجرورفي (منه) يعود إلى ما فُجر وهى (العيون)،وهو متأخر

وقد يعود الضمير على متأخر في اللفظ متقدم في الرتبة

---

(١) سورة الفتح من الآية: ٢٩

(٢) سورة مريم الآية: ٥٤

(٣) سورة البقرة من الآية: ٢٢

(٤) سورة البقرة من الآية: ٦٠

قال تعالى:﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[١] الضمير في (نفسه) يعود على (موسى) وهو متأخر في اللفظ ، لكنه متقدم في الرتبة لكونه فاعلا ،والملحظ البياني لتقديم الضمير على مفسره رعاية الفواصل كما ذكر عدد من المفسرين [٢]

والبيان القرآني يربأ عن ذلك ، كما قال الإمام البقاعي:" ولما كان المقام لإظهار الخوارق على يديه ، فكان ربما فهم أنه أوقعه في نفس أحد غيره ، كان المقام للاهتمام بتقديم المتعلق ، فقال لذلك لا لمراعاة الفواصل ﴿ في نفسه ﴾ أي:خاصة ، وقدم ما المقام له والاهتمام به فقال : ﴿ خيفة موسى﴾ مثل ما خاف من عصاه أول ما رآها كذلك على ما هو طبع البشر ، وللنظر إلى الطبع عبر بالنفس لا القلب مثلاً"[٣]

وقال تعالى:﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[٤] الضمير في (ذنبه) يعود على متأخر في اللفظ وهو (إنس) لكنه متقدم في الرتبة ؛لأنه نائب فاعل "وأضمر قبل الذكر لما هو مقدم في الرتبة ليفهم الاختصاص فوجد الضمير لأجل اللفظ فقال : ﴿ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ أي خاصة وقد سئل المحسن عن حسنته سؤال تشريف له وتنديم لمن دونه"[٥]

ومن ذلك قول النبي ﷺ" كان على الطريق غصن شجرة ، يؤذي

---

(١) سورة طه من الآية ٦٧

(٢) ينظر: روح المعاني ١٦/ ٢٢٨

(٣) نظم الدرر ١٦/ ٣٠٧

(٤) سورة الرحمن من الآية ٣٩

(٥) نظم الدرر ١٩/ ١٧٦

الناس ، فأماطها رجل فأدخل الجنة" [١]

فالضمير في (أماطها) يعود على متأخر وهو (رجل) .

وفي هذا تشويق للمخاطب لمعرفة المفسر ،فإذا ما وقف عليه تمكن في نفسه، وثبت في فؤاده، وأقبل على المطلوب في أسرع وقت بلا توني أو انتظار

ومن أمثلة وروده في النظم قول أرطأة بن سهية:

تمنَّت وتلك من سفاهة رأيها لأهْجُوها لمَّا هجتني مُحاربُ[٢]

فقوله (محارب) مفسر لضمير سبقه .

أما عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة نحو (زان علمه محمدًا) فرد الجمهور هذا التركيب، ووصفه البلاغيون بضعف التأليف وأولوه[٣] ، وذهب الأخفش وابن جني وابن مالك[٤] إلى جوازه ، كقول حسان :

ولو أن مجدًا أخلد الدهرَ واحدًا من النَّاس أبقى مجدُهُ الدَّهر مُطعمَا

وخص النحويون بضمير الشأن والقصة حيث يفسر بالجملة بعده نحو (هو زيد قائم) فالضمير (هو) فيه إبهام يرتفع بجملة (زيد قائم) [٥] ، ووصفوه بالندرة لخروجه عن الأصل[٦]

وهذا الضمير له مقامات تستدعيه قال ابن يعيش :"وعادة العرب أن تصدر قبل الجملة بضمير مرفوع ويقع بعده جملة تفسره ، وتكون في

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجة في كتاب الأدب ، باب إماطة الأذى عن الطريق ٢/ ١٢١٤

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٠٠٣

(٣) ينظر: الإيضاح صـ ١٤، وما بعدها

(٤) التسهيل صـ ٢٨

(٥) الفوائد الضيائية ٢/ ٩٠، ٩١

(٦) تعدد الأبواب التي يعود الضمير فيها على متأخر لفظا ورتبة عند النحويين ذكر ابن أبي الربيع منها أربعا وزاد ابن هشام ثلاثة أخرى . ينظر: البسيط في شرح الجمل ١/ ٣٠٣، ومغني اللبيب ٥/٥٣٣ -٥٥٤

موضع الخبر عن ذلك المضمر نحو قولك:هو زيد قائم أي : الأمر قائم ، وإنما يفعلون ذلك عند تفخيم الأمر وتعظيمه ، وأكثر ما يقع في الخطب والمواعظ لما فيها من الوعد والوعيد"(١)

وذكر الرضي أن:" القصد بهذا الإبهام ثم التفسير : تعظيم الأمر وتفخيم الشأن ، فعلى هذا لابد أن يكون مضمون الجملة المفسرة شيئا عظيما يعتنى به"(٢)

ومن أمثلة ذلك في البيان القرآني قوله تعالى:﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (٣)

الضمير (هى) مبهم توضحه الأبصار وتفسره (٤) ، يعني أن القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ، ومعنى الكلام أن القيامة إذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الأهوال ، فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ، ومن توقع ما يخافونه (٥) ،وفي هذا توكيد لمضمون الجملة ،و تفخيم للمعنى

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾(٦)

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١١٠

(٢) شرح الرضي ٢/٢١٤

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٧

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/٢٤٢،٢٤١ ،والكشاف ٣/١٣٥

(٥) مفاتيح الغيب ٢٢/٢٢٢، والمحرر الوجيز ٤/١٠٠

(٦) التحرير والتنوير ١٧/ ١٥٤ بتصرف

وهذا كلام من كلماتهم في منكري البعث إذ ينفون أن يطرأ عليهم بعد الموتة المعروفة شيء غيرها يعنون بذلك شيئاً ضد الموتة وهو الحياة بعد الموتة . فلهم في نَفْي الحياة بعد الموت أفانين من أقوال الجحود ، وهذا القصر قصر حقيقي في اعتقادهم لأنهم لا يؤمنون باعتراء أحوال لهم بعد الموت[١]

وقال تعالى﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[٢] فتقديم ضمير (الأبصار) عليها فيه تفخيم وشرف وعلو منزلة لأن المعنى بنى أول بالتلويح ثم التصريح ، وفي هذا تمكين للمعنى وتثبيت له.

وبهذا بان لنا أن الضمير قد يتقدم على مفسره لفظا ،أو رتبة أو هما معا ،وهذا على خلاف الأصل ، ولكل له مقاماته وغرضه البلاغي وقد جاء في القرآن بنسب متفاوتة ، كما ورد في الشعر العربي ، ومن أمثلة ذلك ،قول إبراهيم بن كنيف

ولكن رحلْنَاهَا نُفُوساً كريمةً ... تُحَمِّلُ ما لا يُستطاع فتحملُ

يجوز أن يكون معنى رحلناها رحلنا لها نفوساً، والضمير للحوادث، ويكون هذا كقولهم كلْتُك وكِلْتُ لك، ووزنْتُك ووزنتُ لك، ويكون (نفوساً) مفعولاً (لرحلنا).

ويجوز أن يكون الضمير أعنى ضمير المنصوب في " رحلناها " للنفوس، على أن يكون مفعولاً. وأتى بالضمير قبل الذكر، ثم جعل قوله (نفوساً) بدلاً منها، على طريق التبيين[٣].

وقال حسَّان بن نُشْبة:

---

(١) معاني القرآن للفراء٢/ ٢٢٨،والكشاف ١٣٥/٣

(٢) سورة الحج من الآية :٤٦

(٣) الحماسة: ١/ ١٨٩

أمرٌ على أفْواه من ذاق طعمها ... مطاعِمُنَا يمْجُجْن صاباً وعلْقما

يقول: صارت مطاعمنا مرَّةً على أفواه من ذاقها، حتى إنها تمجُّ بعد ذواقها صاباً وعلقماً، .....وقوله: " يمججن " حالٌ للأفواه، والتقدير أمر مطاعمنا على أفواه الذائقين طعمها، ماجةً صاباً وعلقماً، أي إذا ذاقت رمت بما هو كهذين.

والمعنى: إذا خُبرنا حصل منا على ما هو كذلك. وجاز في (طعْمها) الإضمار قبل الذكر؛ لأن الكلام يحتمل نية التقديم والتأخير، لما كان رتبةُ الفاعل وهو (مطاعمنا) التقديم، ورتبة المفعول وما يجري مجراه التأخير، وهو على أفواه من ذاق طعمها. وفي طريقة هذا البيت قول الآخر:

فإن تَغمزْ مفاصِلَنَا تجدنا ... غلاظاً في أنامل من يصولُ[1]

وقال:

فتىً عيشَ في معروفه بعــدَ موْته .. . كما كان بعد السَّيل مجراهُ مرْتعا

ولما مضى معنٌ مضى الجود فانقضى ... وأصبحَ عِرْنين المكارم أجْــدعا

قوله :(كما كان بعد السيل مجراه) ارتفع مجراه بـــ(كان)، وكان الحكم أن يليه فلم يسغ ؛لأن الضمير فيه يرجع إلى السيل ،وقد تقدم عليه، والإضمار قبل الذكر أو ما يجري مجراه لا يجوز، فامتنع رده إلى رتبته من ولي العامل له، لشيء يرجع إلى الضمير المتصل به لا لشيءٍ يرجع إليه. وتلخيص الكلام: كما كان مجرى السيل مرتعاً بعده. [2]

قال المتنبي:

كأنها الشمسُ يُعيي كفَّ قابضها شُعَاعُها ويراهُ الطَّرفُ مقتربا

الضمير في (شعاعها) جاء قبل مفسره ؛لأنه اتصل بمخفوض قد

---

(١) الحماسة: ١/ ٢٤٥

(٢) الحماسة: ١/ ٦٦١، ٦٦٢

أضيف إليه مفعول ، كما تقول(أخذ الثوب غلامِه الأميرُ)

وإذا اتصل الضمير بالفاعل قبح تقديمه على المفعول ، فلا يحسن أن يقال: (خان غلامُه الأميرَ) إلا في الضرورة ، كقول الشاعر:

جزى ربه عنِّي عَدِيَّ بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعلْ[١]

ونعت البلاغيون البيت وما جاء على مثله بضعف التأليف وذكر الخطيب القزويني أن رجوع الضمير على متأخر لفظا ورتبة ممتنع عند الجمهور[٢]، وأولوا ذلك على وجه يصححه، في حين نجد في الجانب الآخر من يصحح مثل هذا التعبير، معللا ذلك بـــ(غلبة الفروع على الأصول) [٣]، ومن بين هؤلاء العلماء أبو على الفارسي ، والأخفش ،وابن جني ، ،وأبو عبد الله الطَّوال من الكوفيين وابن مالك ،أما الجمهور فقد أوجب تقديم المفعول في النثر[٤]

وعقب بهاء الدين السبكي على كلام الجمهور بقوله:" ذلك الضعف ربما كان في النثر دون الشعر ؛لأن ضرورة الشعر كما تجيز ما ليس بجائز ، فقد تقوِّي ما هو ضعيف ، فعلى البياني أن يعتبر ذلك ، فربما كان الشيء فصيحا في الشعر غيرَ فصيح في النثر"[٥] وفي هذا جواز الانحراف عن الأصل في اللغة الأدبية لأغراض فنية

هذا غيض من فيض، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق ، ومن السوار ما أحاط بالمعصم.

---

(١) تفسير أبيات المعاني صـــ ٤٢

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة صـــ١٤

(٣) ينظر: الخصائص ١، ٢٩٧، ٢٩٨

(٤) ينظر : نظرية اللغة في النقد العربي صـــ ٣٤٠ ــ ٣٤٢،١

(٥) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ١/ ٩٨، ضمن مـــا أســـموه بشـــروح التلخـــيص ، وأسرار اللغة صـــ ٣٢٦

الفصل الثاني بعنوان

مخالفة ىالضمير لمرجعه في العدد

ويتضمن مبحثين:

أولهما: مخالفة الضمير لمرجعه في الإفراد والتثنية والجمع في الظاهر

ثانيهما: عود الضمير على أحد المتعاطفين دون الآخر

المبحث الأول

مخالفة الضمير لمرجعه في الإفراد والتثنية والجمع في الظاهر

الأصل: أن يطابق الضمير مرجعه في العدد ،وهذا هو الكثير في القرآن إلا أنه وردت بعض الآيات مخالفة لمرجعها عددا في الظاهر مع وجود التناسب بينهما ، ويظهر هذا واضحا في الشواهد الآتية:

١ــ وقوع ضمير المفرد في موضع الجمع

أــ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾[١]

الحديث في الآية عن الضالين المكذبين وما يلاقونه من عذاب يوم الدين فطعامهم من شجرة الزقوم ،وهي ليست مثل شجر الدنيا هيئة وطبيعة ، فهي تنبت في قرار جهنم ، وتنمو على السعير ، خبيثة المطعم ، كريهة المنظر ، تعافها النفس ، وتزْورّ عنها العين ، تضرّم العطش في جوف طاعمها ، فلا يجد غير الحميم ، فيشرب منه ؛ ليزيد ما يتأجج في جوفه من حر الظمأ ، إذ لا معدى له عنه ، ولا بديل غيره،ولا حيلة له في اتقاء شره[٢]

وقد عاد الضمير المتصل بـــ(على) في قوله﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ يعود على لفظ (شجر) ، وهو اسم جنس وفي هذا مخالفة في الظاهر، لكن هناك مناسبة المعنوية،وهي أن الضمير في (عليه) عائد على المأكول ، أو على الأكل. ولم يعدعلى لفظ شجر. [٣]

---

(١) سورة الواقعة ٥١: ٥٤

(٢) مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة صـــ ١٤٤ بتصرف

(٣) المحرر الوجيز ٥/٢٨٧، والحر المحيط ١٠/٢١٠

وذكر الألوسي سر المخالفة بأنه:"لو أعيد الضمير المذكر على الشجر باعتبار كونه مأكولاً ليكون التذكير والتأنيث باعتبار المعنى كان أولى ".[١]

وهنالك لطيفة أخرى ، وهي أن شجر الزقوم متعدد عند الأكل منه ، فإذا قر في بطونهم ،وامتزج بعضه ببعض صار شيئا واحدا لا تعدد فيه فأصبح المناسب مجيء الضمير جمعا أولاً ثم إتباعه بالمفرد[٢]

ب ــ قال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ ﴾[٣]

فالهاء في ﴿منه﴾ مفردٌ مذكرٌ و مرجعه ﴿ صدقاتهن﴾ جمعٌ مؤنثٌ ، وليس بينهما تطابق في الجنس والعدد،وفسر الزمخشري سر المخالفة بقوله:"الضمير في (منه) جار مجرى اسم الإشارة كأنه قيل عن شيء من ذلك ، كما قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾[٤] بعد ذكر الشهوات ، ومن الحجج المسموعة من أفواه العرب ما روى عن رؤبة أنه قيل له في قوله :

كَأَنَّهُ فِي الْجِلدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ ... [٥]

فقال : أردت كأن ذاك .

---

(١) تفسير الألوسي ٢٠ / ٢٤٦

(٢) ينظر: فلسفة الضمير صـــ ٢٨

(٣) سورة النساء الآية:٤

(٤) سورة آل عمران الآية : ١٥

(٥) وقول رؤبة هو عجز بيت له ، وصدره : (فيها خطوطٌ من سوادٍ وبلق) ، والبيت في وصف مفازة ، وفي الديوان (كأنَّها) بدل (كأنَّه) ، ينظر : مجموعة أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج ، ١٠٤ ، قصيدة رقم / ٤٠ ، وعجزه في الكشاف ١/ ٢٨٠، ٢/ ١٨ ، وتفسير البيضاوي ١/ ٢٠١ ، والبحر المحيط ، ٣/ ٥١٢.

أو يرجع إلى ما هو في معنى الصدقات وهو الصداق ، لأنك لو قلت : وآتوا النساء صداقهن ، لم تخل بالمعنى ... والمعنى : فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق وتجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم ﴿ فَكُلُوهُ ﴾ فأنفقوه ".[١]

فالمعنى الذي أريد بالصدقات قابلٌ لأنْ يستعمل له لفظ غير جمع ،وهو الصداق، أو ما أصدق، فيكون الضمير في قوله ﴿منه﴾ عائدًا على معنى الصدقات، باعتبار اسم آخر شأنه أن يستعمل للدلالة عليه، حتى كأنه قيل: وآتوا النساء صداقهن أو ما أصدقتموهن [٢]

وبهذا تتحقق المطابقةُ بين الضمير ومرجعه ، قال الواحديُّ : " ﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ ﴾ أي إن طابت لكم أنفسهن عن شيءٍ من الصداق ، فكلوه هنيئاً في الدنيا لا يقضي به عليكم سلطانٌ ، مريئاً في الآخرة لا يؤاخذكم الله به "[٣]

وبهذا تبين لنا أن المطابقة بين الضمير المفرد المذكر ومرجعه ، هي الغالبة في القرآن الكريم ، وما جاء في ظاهره مخالفاً لهذه المطابقة ، يكون حملا على المعنى ، كما أوضحنا

٢ــ وقوع ضمير المثنى في موضع المفرد

الأصل أن يعود ضمير المثنى على مفسر مثله في التثنية، كما في قوله تعالى:﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[٤]،

---

(١) الكشاف ١٧/٢ وينظر : تفسير النسفي ، ١ / ٢٠٦ ، وتفسير البيضاوي ١ / ٢٠١ ، والبحر المحيط ، ٣ / ٥١١

(٢) حقيقة ضمير الغائب صـ ٢٤، ٣٦

(٣) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ١ / ٢٥٢

(٤) سورة هود الآية : ٤٣

الضميرفي (بينهما) عائدٌ على نبي الله نوحٍ ،وابنه في قوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾[١] فجاء الضمير مطابقا لمرجعه

لكن ورد في النظم القرآني شواهد ظاهرها التخالف بين الضمير المثنى ومرجعه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[٢]

الضميرٌ في قوله : (منهما) مثنىً يعود على (البحرين) ، مع أن اللؤلؤَ والمرجانَ يخرجان من الماء المالح دون العذب

وقد أوضح ذلك القرطبيُّ قائلاً : " وقال (منهما) وإنما يخرجُ من الملح لا العذب ؛ لأنَّ العربَ تجمعُ الجنسين ، ثُمَّ تُخبرُ عن أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ ، وإنما الرسل من الإنس دون الجن ، قاله الكلبيُّ وغيره ﴾[٣]

وقال أبو عليٍّ الفارسيٌّ : هذا من باب حذف المضاف ، أي من أحدهما،كقوله : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[٤] ، أي من إحدى القريتين "[٥]

---

(١) سورة هود الآية : ٤٢

(٢) سورة الرحمن الآيات ١٩: ٢٢

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ١٦٣ وينظر : تفسير القرآن العظـيم ٤ / ٢٧٣ ، وروح المعاني ٢٧ / ١٠٦-١٠٧، والتحرير والتنوير ٢٧/ ٢٥٠

(٤) سورة الزخرف الآية: ٣١

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ١٦٣ ، وينظر : البحر المحيط ، ١٠ / ٦٠-٦١، والتحرير والتنوير ٢٧/ ٢٥٠

ونقل أبو حيان تفسيرا آخر وهو أن: " تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر ؛ لأن الصدف وغيرها تفتحُ أفواهها للمطر ؛ فلذلك قال : منهما "[١]

وقال الزجاج : قد ذكرهما الله فإذا أُخرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما وهو كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾[٢] والقمر في السماء الدنيا إلا أنه لما أجمل ذكر السبع كأن ما إحداهن فيهن [٣]

فرجوع الضمير إلى أحد المذكورين جائز في كل ما اتفق في أصله .

٣ــ وقوع ضمير الجمع في موضع المفرد

الأصل إذا جاء ضمير الغائب جمعا مذكرا يعود على مرجع مثله ، وهذا ما جاء عليه القرآن الكريم ،كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[٤] فــالضمير(هم) من (عنهم) ومن (يأتيهم) عائد إلى جمع القائلين ، وهذا هو غالب أسلوب القرآن[٥] وغير ذلك كثيرٌ في القرآن الكريم

لكن جاءت بعضُ الآيات في القرآن الكريم ظاهرها المخالفة بين ضمير الغائب الجمع المذكر ومرجعه ومن أمثلة ذلك [٦]

---

(١) البحر المحيط ١٩٠/٨ وينظر : روح المعاني ٢٧/ ١٠٦

(٢) سورة نوح الآية: ١٥، ١٦

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨

(٤) سورة هود الآية :٨

(٥) ينظر: على سبيل المثال: سورة الحجر : الآية : ٣٠، والأحقاف ١٣

(٦) ينظر: على سبيل المثال : سورة الأنعام ٦٠- ٦١، الكهف: ١٩-٢٠، الأحزاب ٣٦

١ــ قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[١]

المعنى: أن مثل المنافقين مثل قوم كانوا في ظلمة فأوقدوا نارًا ، فلما أضاءت النار ما حولها أطفأها الله وتركهم في ظلمات لا يبصرون

فالظلمة الأولى التي كانو فيها الكفر، واستيقادهم النار قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾، فلما أضاءت لهم،واهتدوا خلوا إلى شياطينهم، فنافقوا ،وقالوا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، فسلبهم الله نور الإيمان وتركهم في ظلمات لا يبصرون [٢]

والضمير في قوله ﴿ بِنُورِهِم ﴾،﴿وَتَرَكَهُم ﴾ جمع ،يعود إلى المفرد في قوله ﴿ ٱلَّذِىُ ﴾ و﴿ حَوْلَهُ ﴾

وقد ذهب العلماء في توجيه هذه المخالفة إلى أقوال كثيرة[٣]، وكلها تؤكد وجود مناسبة معنوية بين ضمير الجمع ومرجعه المفرد

قال الزمخشري :"فإن قلت : قد رجع الضمير في هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه في الوجه الثاني؟ قلت : مرجعه الذي استوقد؛ لأنه في معنى الجمع . وأما جمع هذا الضمير وتوحيده في ﴿ حَوْلَهُ ﴾ ، فللحمل على اللفظ تارة ، وعلى المعنى أخرى" [٤]

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٧

(٢) ينظر: تفسير أبي حاتم ١/ ٦٠، وجامع البيان ١/ ٣٢٢، والنكت في القرآن ١/ ٩٨، ٩٩، ومع القرآن صـــ١٥٦، ١٥٧

(٣) ينظر: تفصيل الأقوال في النكت للمجاشعي ١/ ١٠١، وما بعدها

(٤) الكشاف ١/١٩٩ ، وأنوار التنزيل ١/ ٣٠ ، وتفسير الخازن ، ونظم الدرر ١/ ١١٩، وحاشية السيد على الكشاف صـــ ١٩٩ــ ٢٠٠

وقال الجمل:(الذي) في محل خفض بالإضافة،وهو موصول للمفرد المذكر، ولكن المراد به ههنا ؛ولذلك روعى معناه في قوله ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾ فأعاد الضمير عليه جمعا[١]

وذكر الشيخ ابن عاشور أنه :"جمع الضمير في قوله : ﴿ بنورهم ﴾ مع كونه بلصق الضمير المفرد في قوله : ﴿ ما حوله ﴾ مراعاة للحال المشبهة ،وهي حال المنافقين لا للحال المشبه بها؛ وهي حال المستوقد الواحد على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي وهو انطماس نور الإيمان منهم ، فهو عائد إلى المنافقين لا إلى (الذي) "[٢]

والآية تجسد:" حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون .. بين لقائهم للمؤمنين ، وعودتهم للشياطين. بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة. بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام .. فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ويجسم صورة شعورية.

وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس[٣]

وذكر صاحب تفسير المنار أقوال العلماء ، وأعقبها ببيان القيمة البلاغية للمخالفة بين الضمير ومرجعه قائلا:" وَالتَّفَنُّنُ فِي إِرْجَاعِ الضَّمَائِرِ مُتَفَرِّعَةً ضَرْبٌ مِنِ اسْتِعْمَالِ الْبُلَغَاءِ يُقَرِّرُ الْمَعْنَى فِي الذِّهْنِ، وَيَهَبُهُ فَضْلَ تَمَكُّنٍ وَتَأْكِيدٍ بِمَا يَحْدُثُ فِيهِ مِنَ الرَّوِيَّةِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِمَعَانِي

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/ ٢١

(٢) التحرير والتنوير ١/٣٠٨-٣١٠

(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٦٠

الْمُخْتَلِفَاتِ"[١]

٢ــ قال تعالى﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٢]

بدأ نداء العبد لربه تعالى بالواحدانية والتفرد وأعقبه بما يسأل به الجمع لا المفرد ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ فقال الزمخشري [٣]:"خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم[٤] ، كقوله :

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ[٥] ...

وقوله :

أَلاَ فَارْحَمُونِي يَا إِلهَ مُحَمَّدٍ[٦]

وعلل الشيخ الشنقيطي للمخالفة بين الضمير ومرجعه قائلا:" في الآية سؤال وهو أن يقال : ما وجه صيغة الجمع في قوله : { رَبِّ ارجعون

---

(١) تفسير المنار ١/ ١٦٩

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٩٩، ١٠٠

(٣) الكشاف ٣/ ٢٠٢

(٤) قال بهذا المعنى البقاعي والبغوي وابن عاشور ينظر: على الترتيب نظم الدرر ،والخازن ، والتحرير والتنوير

(٥) هذا عجز بين لعبد الله بن عمرو العرجي وتمامه : وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

(٦) هذا عجز بيت لم أقف على قائله وتمامه: فإن لم أكن أهلا فأنت له أهل

وعلق ابن حجر على هذا البيت بقوله خاطب الإله الواحد الأحد بخطاب الجمع جريا على عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظيما ، وقيل : هو إشارة إلى تكرار الفعل للتوكيد ، كأنه قيل ارحمني ارحمني ارحمني.الكافي في تخريج أحاديث الكشاف حاشية على تفسير الكشاف ٣/ ٢٠٢ــ ٢٠٣

} ولم يقل : رب ارجعني بالإفراد .

والجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

الاول : وهو أظهرها : أن صيغة الجمع في قوله : ارجعون ، لتعظيم المخاطب وذلك النادم السائل الرجعة يظهر في ذلك الوقت تعظيمه ربه ...

الوجه الثاني : قوله : رب استغاثة به تعالى ، وقوله : ارجعون : خطاب للملائكة ، ويستأنس لهذا الوجه بما ذكره ابن جرير ، عن ابن جريج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : « إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك إلى دار الدنيا فيقول : إلى دار الهموم والأحزان ، فيقول : بل قدموني إلى الله وأما الكافر فيقولون له : نرجعك؟ فيقول : رب ارجعون » .

الوجه الثالث : وهو قول المازني : إنه جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال : رب ارجعني ارجعني ارجعني "[1]

ويمكن أن يقال في توجيه المخالفة أن الخطاب بالفعل (ارجعون) إشارة إلى حال العاصي إذا جاءه الموت ، ولا ينجيه منه مال ولا بنون أخذه الفزع والاضطراب ، لا يدري معه وجه القول، فهو ينادي ربه في وحدانيته ، ولكن بلفظ الجمع لا المفرد [2]

وكل ما مر من الأقوال والتفسيرات تؤكد على المناسبة بين الضمير ومرجعه وأن ذلك لم يخرج عن سنن العرب في تعبيراتهم.

وأن وضع ضمير الجمع موقع المفرد إما رفعا لمكانة المخاطب ،

---

(١) أضواء البيان ٥/ ٨٩٦

(٢) ينظر: مع القرآن دراسة مستلهمة صـ ١٦٠

وإظهارا لأبهته ،كما في مخاطبات الملوك والعظماء ،أو تفخيما لما أولى من النعم ،أو غير ذلك[١]

٤ــ وقوع ضمير الجمع العاقل في موضع ضمير الجمع لغير العاقل

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٢] الضمير في ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ جمعا للمؤنث العاقل مع عوده على جمع غير العاقل ومجيئه على هذا ظاهره التخالف غير أنه مناسب في المعنى،حيث يؤتي ثمار ومقاصد لا تؤتى إلا بمجيء الصياغة على هذه الصورة

فقوله تعالى(الَّذِي خَلَقَهُنَّ) فيه ضمير جمع (هن)، لأن المراد من الكلام: واسجدوا لله الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، وذلك جمع، وأنث كنايتهن لكونه سائغا في لغة العرب، كما قال الطبري ــ رحمه الله[٣]

وقال الزمخشري : لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى ، أي الإناث ، يقال : الأقلام بريتها وبريتهن[٤]

فالمناسبة المعنوية بين الضمير ومرجعه محققة

وذكر الشيخ الخطيب ثلاث إشارات قائلا :" فى هذا أكثر من إشارة :

أولها : الإشارة ضمنا إلى النهى عن عبادة الليل والنهار ، لأن النهى عن عبادة الشمس والقمر ، يتضمن ــ من باب أولى ــ النهى عن عبادة

---

(١) ينظر: الكليات للكفوي صـ ٥٧٠

(٢) سورة فصلت الآية ٣٧

(٣) ينظر: جامع البيان ٢١ / ٤٧٤، والكشاف ٥/ ٤٤٣

(٤) الكشاف ٥/ ٤٤٤ ، والمحرر الوجيز ، وروح المعاني ٢٤/ ١٢٥

الليل والنهار ، إذ كان الليل والنهار من مواليد الشمس ، فهذا أشبه بالمخلوقين التابعين لهما ، فإذا وقع النهى على عبادتهما ، شمل ذلك النهى عن عبادة توابعهما ، ولهذا جاء الضمير جمعا : « الَّذِي خَلَقَهُنَّ » .

وثانيا : الإشارة إلى أن هذه المخلوقات الليل والنهار والشمس والقمر ، وإن بدت جمادا صامتا فى نظر الإنسان ، فإنها عند اللّه سبحانه وتعالى تسمع ، وتبصر ، وتعقل ، وتتلقى أمر اللّه سبحانه وتستجيب له فى ولاء مطلق .. ولهذا جاء الضمير للعقلاء.

وثالثا : الإشارة إلى أن هذه العوالم من ليل ونهار ، وشمس ، وقمر ، وإن بدت ذات سلطان قائم على الناس ، إلا أنها إلى جانب قدرة اللّه مستسلمة لا تملك من أمرها شيئا .. ولهذا لبست ثوب الأنوثة ، الذي يدل غالبا على الضعف ، وخاصة عند الجاهلين .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ، فى موضع آخر : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إشارة إلى أن إخلاص العبادة للّه وحده ، هو الذي يعتبر عبادة مقبولة .. أما أن يعبد اللّه فى صورة هذه المخلوقات ، أو أن تعبد معه هذه المخلوقات تقربا بها إليه ، فهذا ليس من عبادة اللّه فى شىء[2].

---

(١) سورة الزخرف الآية: ١٨

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٢ /١٣٢٢، ١٣٢٣

المبحث الثاني
عود الضمير على أحد المتعاطفين دون الآخر

الأصل وجوب المطابقة بين الاسمين المعطوفين بـــ(الواو) و(أو) والضمير العائد عليهما في العدد ، وهو ما ذهب إليه البصريون ، ووافقهم في ذلك ابن عصفور وابن مالك[١]

وجوز الأخفش والرضي جواز المطابقة والإفراد ، وإن كانت المطابقة أقيس[٢]

وقد ورد العدول في اللفظ عن المطابقة بين الاسمين المعطوفين بالواو والضمير العائد عليهما في العدد في الظاهر في البيان القرآني، لوجود المناسبة المعنوية بين الضمير ومرجعه ، ومن أمثلة ذلك:

١ــ قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٣]

اختلف المفسرون في بيان سر المخالفة بين الضمير ومرجعه فقال الزمخشري :" فإن قلت : لم قيل : ولا ينفقونها ، وقد ذكر شيئان؟ قلت : ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ : لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم ، فهو كقوله : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ وقيل : ذهب به إلى الكنوز ، وقيل : إلى الأموال . وقيل : معناه ولا ينفقونها والذهب ، كما أن معنى قوله :

---

(١) ينظر شرح الجمل ٢٤٧/١،وشرح التسهيل ٣/ ٣٨٢، وينظر الارتشاف ٢/ ٦٦٣، والهمع ٢/ ١٤١

(٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ٢٥٢، وشرح الرضي ١/ ٣٢٧

(٣) التوبة : ٣٤

فَإنِّي وقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ ... وقيار كذلك" (١)

وقال البقاعي: ويجوز أن يعود الضمير إلى الفضة؛ لأن الذم على كنزها ، والحاجة إليها لكثرتها أقل ، فالذم على كنز الذهب من باب الأولى لأنه أعلى منها وأعز بخلاف الذم على كنز الذهب؛ وقال الحرالي في آل عمران : فأوقع الإنفاق عليهما ولم يخصه من حيث لم يكن ، ولا ينفقون منها كما قال في المواشي ﴿ خذ من أموالهم ﴾ لأن هذين الجوهرين خواتم ينال بها أهل الدنيا منافعهم وقد صرف عنهم الانتفاع بهما فلم يكن لوجودهما فائدة إلا بإنفاقهما لأنهما صنما هذه الأمة ، فكان كسرهما بإذهابهما"وقال الفخر الرازى ما ملخصه : ذكر - سبحانه - شيئين هما الذهب والفضة ثم قال : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَهَا ﴾ وكان الظاهر أن يقول " ولا ينفقونهما " والجواب من وجهين : الأول : أن الضمير عائد إلى المعنى دون اللفظ ، لأن كل واحد منهما جملة وافية؛ وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله - تعالى - ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ أو أن يكون التقدير : والذين يكنزون الكنوز ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فيكون الضمير عائد إلى الكنوز المدلول عليها بالفعل ﴿ يَكْنِزُونَ﴾.

الثانى : أن يكون الضمير عائد إلى اللفظ ، ويكون ذكر أحدهما يغنى عن ذكر الآخر ، كقوله - تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ جعل الضمير للتجارة"

والمجال يتسع لكل ما قيل لتعدد الفهم والتأويل ،وهذا من الإعجاز القرآني

وجاء في البحر المحيط أن الضمير في : (ولا ينفقونها) ، عائد على

---

(١) نظم الدرر ٨/ ٤٤٧

الذهب ، لأن تأنيثه أشهر ، أو على الفضة.

وحذف المعطوف في هذين القولين أو عليهما باعتبار أن تحتهما أنواعاً ، فروعي المعنى كقوله :﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾، أولأنهما محتويان على جمع دنانير ودراهم ، أو على المكنوزات ، لدلالة يكنزون.

أو على الأموال ، أو على النفقة وهي المصدر الدال عليه.

ولا ينفقونها ، أو على الزكاة أي : ولا ينفقون زكاة الأموال أقوال.

وقال كثير من المفسرين : عاد على أحدهما كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾وليس مثله ، لأن هذا عطف بـــ(أو) ، فحكمهما أنّ الضمير يعود على أحد المتعاطفين بخلاف الواو ، إلا أن ادّعى أنّ الواو في والفضة بمعنى أو ليمكن ، وهو خلاف الظاهر. (١)

وذكر الزركشي في البرهان أن الغالب عود الضمير على الاسم الثاني في هذه الآية(٢) ،

وقال أيضا"الضمير عائد إلى الفضة وحدها ؛لأنها أقرب المذكورين؛ ولأن الفضة أكثر وجودا في أيدي الناس ، والحاجة إليها أمس فيكون كنزها أكثر"(٣)

فالذهب والفضة شيئان ، ولكن الضمير الذي ذكر بعدهما ليس مثنى والملاحظ أن الذهب والفضة لا ينفقان ، ولكن تنفق الدنانير والدراهم التي تتخذ منهما ،وهي متعددة فجاء الضمير للملحوظ لا للملفوظ(٤)

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠ ، والبحر المحيط ٦/ ١٥١

(٢) البرهان ٤/ ٣٠

(٣) البرهان ٣/ ١٢٧

(٤) ينظر: مع القرآن في دراسة مستلهمة صـــ ١٦٥، وفلسفة الضمير صـــ ٢٨

وقيل اكتفى بذكر أحدهما عن ذكر الآخر اكتفاء[١]

والرأي الأخير هو الأولى بالقبول لوروده في كلام العرب إذ كانوا يكتفون بذكر الشيئين للإيجاز والاختصار، كقول عمرو بن أحمر:

رماني بأمر كنتُ منه ووالدي بريًا ، ومن فوق الطويِّ رماني

ولم يقل بريين [٢]

وذكر ابن رشيق في أثناء حديثه عن (رخص الشعر) ويعني بها (الضرورة الشعرية) كما سماها النحويون أن هنالك "أشياء من القرآن وقعت فيه بلاغة وإحكاما لا تصرفا وضرورة ، وقال [٣]:" إذا وقع مثلها في الشعر لم ينسب إلى قائله عجز ولا تقصير، كما يظن من لا علم له، ولا تفتيش عنده، من ذلك أن يذكر شيئين ثم يخبر عن أحدهما دون صاحبه اتساعا، كما قال عز وجل ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾

والكلام السابق يدل على أن كل مارود في القرآن من ظواهر الاستخدام اللغوي وأساليبه هو في غاية الفصاحة ، وأن أسلوب القرآن مثال يحتذى به أهل اللغة ولو أدى ذلك إلى الخروج عن أصل القاعدة ، والقضية محل خلاف بين العلماء ولا يقتضي المقام لتفصيلها .

٢ــ قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [٤]

قال الفراء " وإن شئت جعلت الله ــ تبارك وتعالى ــ في هذا

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٧٤، وتأويل مشكل القرآن ٢٨٨

(٢) ينظر: النكت في القرآن للمجاشعي ١/ ١٧٨، ٢٨٨

(٣) العمدة ٢/٢٧٧-٢٧٩

(٤) التوبة: ٦٢

الموضع ذكر لتعظيمه والمعنى للرسولﷺ ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ [١] ألا ترى أنك تقول لعبدك : قد أعتقك الله وأعتقتك فبدأت بالله تبارك وتعالى تفويضا إليه وتعظيما له ، وإنما يَقْصد قصد نفسه" [٢]

وقال الألوسي :" وإنما لم يثن تأدبًا لئلا يجمع بين الله تعالى وغيره في ضمير تثنية[٣]

وذهب المبرد إلى: أنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : والله أحق أن يرضوه ورسوله.

وقيل : الضمير عائد على المذكور، كما قال رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق . . . كأنه في الجلد توليع البهق

قال ابن عطية : مذهب سيبويه أنهما جملتان ، حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ، والتقدير عنده : والله أحق أن يرضوه ، ورسوله أحق أن يرضوه.

وهذا كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف

فقوله : مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها أنْ كان الضمير في أنهما عائداً على كل واحدة من الجملتين ، فكيف تقول حذفت الأولى ولم تحذف الأولى إنما حذف خبرها؟ ، وإن كان الضمير عائداً على الخبر ،وهو أحق أن يرضوه ، فلا يكون جملة إلا باعتقاد كون

---

(١) الأحزاب :٣٧

(٢) معاني القرآن ١/ ٤٣٤

(٣) روح المعاني ١٠/ ١١٤، ١١٥

أنْ يرضوه مبتدأ وأحق المتقدم خبره ، لكن لا يتعين هذا القول : إذ يجوز أن يكون الخبر مفرداً بأن يكون التقدير : أحق بأن يرضوه. (١)

فـ"أفرد الضمير في أن يرضوه ؛لأنهما في حكم مرضي واحد ، إذ رضا الله هو رضا الرسول ، أو يكون في الكلام حذف(٢)

وقال الزركشي المعنى: يرضوهما ، لكنه أفرد ؛ لأن داعي الرسول هو داعي العباد ، والمخاطب لهم شفاها ، ويلزم من رضاه رضا ربّه تعالى(٣)

وعليه فلا عدول في التوجيهات الأولى ، ولكن العدول في ما رآه أبو حيان والزركشي وهو عود الضمير على الله ورسوله ،وإنما أفرد لتلازم الرضاءين وهذا توجيه سديد لملاءمته السياق التي وردت فيه الآية حيث تخبر عن فئة من المنافقين يحلفون للمؤمنين أنهم يرضوهم مع أنهم يؤذون النبيﷺ ، ويتقولون عليه الأقاويل(٤)،كما ترشد إليه الآية السابقة ،﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ... الآية ﴾ وفي هذا تسلية له نظرا لما يتحمله من أذاهم فإذا هم عادوا إلى رشدهم ، وترفعوا عما هم عليه كان في ذلك رضا الله ورضا رسوله معا ، ومثل ذلك قوله سبحانه ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(٥)

---

(١) البحر ٦/ ١٨٣

(٢) المرجع السابق ، وينظر: تفسير بي السعود ٢/ ٧٨

(٣) معترك الأقران ٣/٥٧٧، وينظر: فتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٧٦

(٤) أسباب النزول صـــ ٢٤٨، ٢٤٩

(٥) سورة النساء من الآية ٨٠

٣ــ قال تعالى:﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾[١]

الضمير في﴿يَتَسَنَّه ﴾ مفرد، وقبله معطوفين فلأيهما يعود الضمير؟

وتوجيه ذلك على ثلاثة وجوه[٢]:

أولها: أن يكون الطعام والشراب أفرد ضميرهما لكونهما متلازمين ، فعوملا معاملة المفرد.

ثانيها: أن يعود على الشراب خاصة وهو أقرب مذكور، ويكون قد حذف مثل هذه الجملة الحالية من الطعام لدلالة ما بعده عليه والتقدير : وانظر إلى طعامك لم يتسنه وإلى شرابك لم يتسنه ، أو يكون سكت عن تغير الطعام تنبيها بالأدنى على الأعلى ، وذلك أنه إذا لم يتغير الشراب مع نزعة النفس إليه فعدم تغير الطعام أولى[٣]

ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود«فانظر إلى طعامك وهذا شرابك لم يتسنه»[٤] أي : أن الشراب لم يتغير بمرور الزمن

ثالثها: أن يكون في معنى الغذاء ، فكأنه قيل : وانظر إلى غذائك لم يتسنه وقال الشاعر في المتلازمين :

وكأن في العينين حب قرنفل ... أو سنبلاً كحلت به فانهلّت[٥]

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٩

(٢) ينظر : الكشاف : ١ / ٣٠٧، والبحر المحيط :٢/ ٣٠٤، واللباب : ٤ / ٣٥٦

(٣) ينظر : التبيان في إعراب القرآن : ١/ ١٠٩ ، ١١٠

(٤) تنظر القراءة في الكشاف ١/ ٢٩٥، والبحر٢/ ٢٩٢، وتفسير القرطبي ٣/ ٢٩٢، ومعجم القراءات ١/ ٣٧٠

(٥) البيت لسلمى بن ربيعة كما في : حاشية يس على التصريح بمضمون التوضيح : ٢ / ٣٨٧ ،والدر المصون :١/ ٣٢٣ ، وأمالي ابن الشجري :١/ ١٨٣

٤ـ قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[١]

الضمير في ﴿ وَإِنَّهَا﴾ يعود إلى الإجابة للنبيﷺ وإن لم يسبق لها ذكر ، كما قال الطبري [٢]

وقال بعضهم الضمير يعود إلى (الاستعانة) المفهومة من لفظ"استعينوا"[٣] ، ومثله قول الشاعر

إذا نُهى السَّفيه جرى إليه وخالف، والسفيه إلى خلاف[٤]

فجرى السفيه بمعنى السفه

وقيل: تعود إلى الصلاة لكونها أقرب ، واختار هذا الرأى كثير من المفسرين ، واختاره المجاشعي[٥]

و"خص الصلاة بعود الضمير إليها؛ لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر[٦]

وقال الزركشي بل يعود إليهما معا أي الاستعانة والصلاة ، وهذا كثير في كلامهم[٧]

العدول في اللفظ عن المطابقة بين الاسمين المعطوفين بـ"أو"

جاء ضمير الغائب بعد العطف بـ(أو) بين شيئين أو أشياء فإنه يجوز

---

(١) البقرة : ٤٥

(٢) ينظر: جامع البيان ٢/ ١٥

(٣) ذكره محمد بن قاسم في زاد المسير ١/ ٧٦

(٤) نسب هذا البيت لقيس بن الأسلت في إعراب القرآن المنسوب للزجاج ٣/ ٩٠٢

(٥) ينظر: النكت ١/ ١٤٣

(٦) تفسير أبي السعود ١/ ٩٨

(٧) ينظر: البرهان ٣/ ١٩٨

في مطابقته لأحدهما سواء أكان ما قبل أو ما بعدها، ولا يلزم مطابته لهما في التثنية أو الجمع، فمما روعى في الأول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾[1]

الضمير (إليها) عائد إلى التجارة ؛لأنها أهم عندهم من اللهو؛ ولأن الحدث الذي نزلت الآية عنده هو مجيء عِير دحية من الشام . واكتفى به عن ضـــمير اللهو ،كما في قول قيس بن الخطيم ، أو عمرو بن الحارث بن امرىء القيس :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأيُ مختلف

ولعل التقسيم الذي أفادته (أو) في قوله : (أو لهواً) تقسيم لأحوال المنفضّين إذ يكون بعضهم من ذوي العائلات خرجوا ليَمْتَاروا لأهلهم ، وبعضهم من الشباب لا همة لهم في الميرة ولكن أحبوا حضور اللهو .

وفي الآية توبيخ وتقريع... وقوله : (أو لهواً) فيه للتقسيم ، أي منهم من انفضّ لأجل التجارة ، ومنهم من انفضّ لأجل اللهو[2].

وقال صاحب البرهان :" وفي الآتين لطيفة وهي: أن الكلام لما اقتضى إعادة الضمير على أحدهما أعاده على التجارة ، وإن كانت أبعد ومؤنثة ؛ لأنها أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله من اللهو بدليل أن المشتغلين بها أكثر من اللهو ، ولأنها أكثر من اللهو ،أو لأنها أكثر نفعا من اللهو ،أو لأنها كانت أصلا واللهو تبعا ؛لأنه ضرب بالطبل لقدومها على ما عرف من تفسير الآية ؛ ولأن التجارة قد تشغل عن العبادة ما لا يشغله اللهو[3]

ـــ وقد يراعى الثاني ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ

---

(١) الجمعة : ١١

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٢٨، ٢٢٩

(٣) ينظر: البرهان ٤/ ٣٢

أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[١]

الضمير في (يعلمه) يعود إلى الثاني وهو النذر[٢]

وقال الإمام أبو السعود:" وتوحيدُ الضمير مع تعدّدِ متعلَّق العلم لاتحاد المرجع بناءً على كون العطف بكلمة أو كما في قولك : زيدٌ أو عمرٌو أكرمتُه ، ولا يقال : أكرمتُهما"[٣]

خلافا القرطبي حيث أجاز عود الضمير إليهما فإن الضمير يراد به جميع المذكور ، وإن كثر ... لأنه جاء على الحكم المستقر في لسان العرب في : أو"[٤]

وقال البقاعي :"ذكّر الضمير لأنه مع وضوح عوده إلى المتقدم أشد تعظيماً للنذر لما قد يتوهم فيه من النقص عن مندوب الشرع فتحروا في طيب ذلك والوفاء به وجميع ما يدخل فيه من الأوامر والنواهي تحري من يطلب إرضاء ملك عظيم بما يهدي إليه ويعرضه عليه ، فما تصرفتم فيه بالحكمة من إنفاق أو غيره فالله سبحانه وتعالى يجازيكم عليه على حسب ما ذكر لكم من التضعيف ، ومن فعل منكم شيئاً منه على غير وجه الحكمة فهو ظالم واضع للشيء في غير موضعه فهو مردود عليه ومعاقب به وما له من ناصر"[٥]

والرأي الأخير هو ما نميل إليه ،لاعتماده على السائغ في لغة العرب ، كما أن عطاء النظم القرآني لا حد له .

ـ وقد يراعى الثالث، كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٧٠

(٢) تفسير الخازن ١/ ٣٠٣

(٣) تفسير أبي السعود ١/ ٢٦٣، وينظر: البحر المحيط ٣٣٦/٢، وروح المعاني ٤٣/٣

(٤) تفسير القرطبي ٤/ ٣٥٨

(٥) نظم الدرر ٩٨/٤ ، والبحر المحيط ٣٣٦/٢ ، والظلال ١/ ٣٦٤

أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾[1]

الضمير في (إنه) يعود على الأخير وهو لحم الخنزير

ـــ وقد يعود الضمير كل ما سبقه من مرجع دون تحديد ،كما في قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [2]

ظاهر النظم أنه جاء مخالفا للقاعدة في حكم المعطوف بـــ(أو)وهو أن يعود على أحدهما مع تحديده ،أم هنا فجيء بضمير التثنية(بهما) ليشمل الغني والفقير معا ، وفي هذا تناسب معنوي .

وفي توجيه عود الضمير تأويلات كثيرة [3]وأولاها بالقبول هو الحمل على المعنى ،وهو ما ذهب إليه كل من الفراء والزمخشري وغيرهما يقول الزمخشري:" فإن قلت : لم ثنى الضمير في (أولى بهما) وكان حقه أن يوحد ، لأن قوله : { إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً } في معنى إن يكن أحد هذين؟ قلت : قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله : { إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً } لا إلى المذكور ، فلذلك ثنى ولم يفرد ، وهو جنس الغنيّ وجنس الفقير ، كأنه قيل : فالله أولى بجنسي الغنيّ والفقير ، أي بالأغنياء والفقراء ، وفي قراءة أبيّ : فالله أولى بهم وهي شاهدة على ذلك[4]

وقال الجمل بعد أن ذكر آراء النحويين :" فعلى هذا يكون الضمير في (بهما) عائدا على المشهود له والمشهود عليه على أي وصف كانا عليه"[5]

---

(١) سورة الأنعام ١٤٥

(٢) النساء : ١٣٥

(٣) يراجع البحر المحيط ٤/ ٢٢٥ ، ودراسات لأسلوب القرآن ق١ ج١ ص٥

(٤) الكشاف ٢/ ١٦٢، وينظر تفسير البيضاوي ٢٤٢/١

(٥) الفتوحات الإلهية ١/ ٤٣٣

الفصل الثالث بعنوان

مخالفة الضمير لمرجعه في الذكر والنوع

ويتضمن مبحثين:

أولهما: عود الضمير على غير مذكور غناء بفحوى الكلام وسياقه

ثانيهما: عود الضمير على مخالفه في التذكير والتأنيث

المبحث الأول

عود الضمير على غير مذكور غناء بفحوى الكلام وسياقه

الضمائر مبهمة وتحتاج إلى ما يزيل إبهامها ، ويوضح غموضها فهي" جميعاً مفتقرة إلى القرائن باعتبارها شرطاً أساسياً لدلالتها على معين فضمير المتكلم ، والمخاطب ،والإشارة قرينتها الحضور ، وأما ضمير الغائب فقرينته المرجع المتقدم إما لفظاً ،أو رتبة أو هما معاً فهذا المرجع هو القرينة التي تدل على المقصود بضمير الغائب " (١)

والضمائر في إبهامها تشبه الإبهام في الحروف:" وإنما بنيت المضمرات، إما لشبهها بالحروف وضعا، على ما قيل، كالتاء في (ضربت) والكاف في (ضربك)، ثم أجريت بقية المضمرات نحو: أنا، ونحن، وأنتما: مجراها ، طردا للباب وإما لشبهها بالحروف لاحتياجها إلى المفسّر، أعني الحضور للمتكلم، والمخاطب، وتقدم الذكر في الغائب، كاحتياج الحرف إلى لفظ يُفهم به معناه الإفرادي"(٢)

يقولُ ابنُ يعيشٍ:" والأحوالُ المقترنة بها، حضور المتكلم والمخاطب، والمشاهدة لهما، وتَقَدُّمُ ذِكرِ الغائب الذي يصيرُ بمنزلة الحاضر الشاهد "(٣).

وقال أبو حيان:"ضمير المتكلم والمخاطب تفسرهما المشاهدة ، وأما ضمير الغائب فعارٍ عن المشاهدة ، فاحتيج إلى ما يفسره"(٤) يعنى المفسر، أو المرجع الذي يزيل الغموض ، ويوضح الإبهام

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها – د / تمام حسان : ص ١١٠ ، ١١١ – ط دار الثقافة – ١٩٩٤م

(٢) شرح الرضي على الكافية ٣/٢ تح/ إميل يعقوب ، دار الكتب العلمية

(٣) شرح المفصل لابن يعيش، ٣ / ٨٤

(٤) التذييل والتكميل ٢/ ٢٥٢ ،وهمع الهوامع ١ /٢٢٧

وهذا المفسِّر – في الأعم الأغلب – يكون اسماً ظاهراً منصوصا عليه ، فنقولُ : (محمدٌ أكرمته) و(زيد لقيته) ، وقوله تعالى﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾[1]

وقد لا يُصرحُ بلفظ المرجع في بعض الأحيان ؛ لوجود ما يدلُ عليه حساً ، كما قالَ تعالى : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ [2]، والمقصود موسى عليه السلام ، وإن لم يُصرح بلفظه ، لكونه حاضراً ، أو وُجِدَ ما يدل عليه علماً ، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [3] ، أي القرآن الكريم ، أو يكون المفسِّرُ جزءاً من مدلول مرجعه ، كما في قوله تعالى : ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، فالضمير (هو) يعود على العدل المفهوم من (اعدلوا) ، والعدلُ جزءٌ من (اعدلوا) ؛ لأن الأخير يدلُ على المصدر والزمان ، في حين يدلُ الأول على المصدر فقط

وقد يستغنى عن المفسِّر بذكر ما يُصاحبه ذكرا ، أو استحضارا، أو غير ذلك[4] لأغراض بلاغية ، ومقاصد معنوية ، ويظل أمر التناسب بين الضمير ومرجعه وإن لم يُصَرّح به قائما،ويتضح ذلك من خلال الشواهد القرآنية التالية

١ــ قال تعالى:﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ

---

(١) سورة هود : ٤٢

(٢) سورة القصص : ٢٦

(٣) سورة القدر:١

(٤) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك ١/ ١٥٣ــ ١٥٥، والتذييل والتكميل ٢/٢٥٥ــ٢٥٨

بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّرِبِينَ . وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١)

هذا تعديد لبعض نعم الله على خلقه فقد سخر الله لهم النخيل والأعناب فأخرج لهم منهما ثمرات يتخذون منه رزقا حسنا لهم في حياتهم ، ويتخذون منه سكرا يتوفر في اللذة والمتاع

وظاهر الآية أن الضمير في (منه) يرجع إلى الثمرات إذ ليس في الآية ما يصلح مرجعا غيرها و(الثمرات) جمع سلامة وفي هذا مخالفة للظاهر، وخروجا من التأويل

قال الزمخشري"فإن قلت : فإلام يرجع الضمير في (منه) إذا جعلته ظرفاً مكرّراً؟ قلت : إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى (أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)(٢)إلى الأهل المحذوف"(٣)

وذكر صاحب الفتوحات الإلهية وجوها أخرى(٤)

والملاحظ أن الضمير (منه) في الآية الثانية لم يذكر له مرجع وهو ما قال به جل المفسرين، وأن مرجعه محذوف ، ومعنى الآية على هذا: ومن عصير ثمرات النخيل تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، والسكر لا يتخذ من الثمرات نفسها، بل من العصير المستكن فيها ، وبهذا يظهر التناسب واضحا بين الضمير ومرجعه

---

(١) سورة النحل الآية: ٦٦، ٦٧ مع القرآن الكريم ص ٨٥

(٢) الكشاف ٣/٤٤٦، ٤٤٧ طبعة العبيكان. وينظر: النكت في القرآن ١، ٣٣٩، وأنوار التنزيل ١/ ٥٥٠ ، وتفسير أبي السعود ٣/ ١٢٥

(٣) سورة الأعراف من الآية : ٤

(٤) الفتوحات الإلهية ٢ /٥٨٠

٢ــ قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[١]

في الآيات ضميران لم يذكر لهما مرجع :الأول:الضمير المستتروأضمر لدلالة المقام عليه وهو (بلغت التراقي) ، والتقدير بلغت الروح أو النفس والثاني: ضمير(أنه) ويعود إلى المحْتضَر

ولعل هول الموقف الذي خيّم على المحتضر والجالسين حوله كان سببا في الإضمار، وترك البيان إلى المقام فأهله عاجزون عن تقديم ما يخفف عنه ألم الاحتضار،أو يستبطئوا الأجل الذي حل به، ويتساءلون هل من راق يخفف عنه ما هو فيه ، هيهات إن أمرات الفناء تمثل أمامهم ، ويدب الخور في جسمه ، وتعلوا روحه رويدا رويدا حتى بلغت حلقومه فلم يعد يعي سؤالا أو جوابا ، والمقصد من وصف المشهد العظة والاعتبار، والتذكير لمراجعة الإنسان، وليصنع لمثل هذا اليوم الذي هو آتية لا محالة

٣ــ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[٢]

الضمير في (عليها) يعود إلى الأرض ولم يسبق لها ذكر، وقد دل السياق عليها، وقد أمن اللبس بلفظ(الدابة)؛لأنها لا تكون دابة إلى على الأرض فاللبس مأمون[٣]

٤ــ قال تعالى"﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [٤] فالضمير في (عليها) يعود

---

(١) سورة القيامة ٢٦: ٣٠ مع القرآن الكريم ص ٨٤

(٢) سورة النحل: ٦١

(٣) البيان في روائع القرآن د/ تمّام حسان ١/ ٢٣٦، وينظر: البرهان للزركشي ٤/ ٢٧

(٤) سورة الرحمن : ٢٦

إلى الدنيا ولم يتقدم لها ذكر ثقة بفهم السامع ، أو تقدم ذكر بعضها ، والبعض يدل على الكل ،كما قال ابن مالك[١]،وقيل: إلى الأرض في قوله : (والأرض وضعها للأنام) ، فعاد الضمير عليها ، وإن كان بعد لفظها[٢]

وقد يستدل على المرجع بذكر جزئه،أو ذكره في مقام مشابه ، أو سياق الحال الخ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[٣]

قال الزمخشري "وجاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر؛ لأن الكلام يدل عليه ،ولا يلتبس على السامع . ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعاربأنه شهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام[٤] .

وأيد الطيبي كلام الزمخشري القاضي بعدم ذكر مرجع الضمير وردّ ما قاله الرازي من أن الضمير يعود إلى العلم ؛لكونه أقرب المذكورات في قوله﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والمراد بالعلم النبوة ، كأنه قيل: يعرفون أمر النبوة كما يعرفون أبناءهم ، ولو عاد الضمير إلى القرآن لوجب أن يقال : يعرفونه كما يعفون التوراة للمناسبة ، فلما قيل : يعرفون أبناءهم علم أن الضمير للرسول ﷺ

ولا عبرة لمن قال إن الخطاب للنبي تكرر قبل هذه الآية فلا يعد مرجع الضمير محذوفا بدليل قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ ﴿

---

(١) سورة الرحمن : ٢٦

(٢) البحر المحيط ١٠/ ٢٠٣

(٣) سورة البقرة : ١٤٦

(٤) الكشاف ١/ ١٤٥

وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ ﴾ ﴿ مَا جَآءَكَ ﴾﴿ إِنَّكَ ﴾ وإن كان التفاتا فكيف يقال لم يسبق له ذكر؟ قال الطيبي : أي لم يسبق له ذكر في شأنه صلوات الله وسلامه ؛ لأن الخطاب معه صلوات الله عليه وسلامه تابع لأمر القبلة ، أما هذه الآية فواردة في شأن نفسه صلوات الله عليه ، فليست بينهما مناسبة ؛ ولهذا ابتدأ بقوله﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ من غير عاطف ، فلو رجع الضمير إلى القبلة لأوهم نوع اتصال ، ولم يحسن ذلك الحسن

وذكر السيوطي أن رجوع الضمير إلى محمد هو الصحيح ﷺ، وإن لم يسبق له ذكر؛ لدلالة الكلام عليه ، وعدم اللبس [١]

فالسياق هنا خير معين ، ورادف أساسي لتحديد مرجع الضمير وهو أنه تعالى لما ذكر أمر القبلة ، وذكر طعن السفهاء من أهل الكتاب مع أنهم يعلمون أن التحويل هو الحق؛ لأنه كان مذكوراً عندهم أن رسول الله ﷺ يصلي إلى القبلتين كأنه قيل : الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه ، وبهذا تظهر جزالة النظم الكريم [٢]

ومن أمثلة عود الضمير على ما لم يجر له ذكر قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[٣] فالهاء في﴿ أَنزَلْنَٰه ﴾ يراد بها القرآن وإن لم يجر لها ذكر ؛ استغناءًا عن المفسر بحضور مدلوله علْما إذ الإنزال يدلّ عليه التزاماً ، كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[٤] ،والمراد بها

---

(١) ينظر:الفتوحات الإلهية ١/١١٩

(٢) ينظر:الفتوحات الإلهية ١/١٢٠، تفسير الشعراوي ١/ ٣٧٨

(٣) سورة القدر :١

(٤) سورة الرحمن :٢٦

الأرض، وكقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾[١] المراد الشمس وإن لم يجر لها ذكر؛ و جاز ذلك في هذه المواضع كلها ، لدلالة الحال عليه "[٢]

فعود الضمير على القرآن موافق لقوله تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٣] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [٤]

فالحال يدل على أن المنزّل هو القرآن ، وهذا الإضمار فيه فخامة لشأن صاحبه ؛ حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته[٥]

والمراد في الآية الأخيرة : أن سبب عداوة اليهود لجبريل (عليه السلام) أنه نزل عليك بالقرآن مصدقاً لكتابهم ، وموافقاً له ، وهم لا يريدون ذلك ؛ ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له

ويؤيد عود الضمير على القرآن في آية البقرة تقدم ذكره في قوله تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[٦] أو أن الفعل لا يصلح إلا له هنا [٧]

---

(١) سورة ص : ٣٢

(٥) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن :١/ ١١١، ١١٢، والإتقان في علوم القرآن : ٢/ ٢٨٢

(٣) سورة البقرة:٩٧

(٤) سورة الشعراء: ١٩٢، ١٩٣

(٥) الكشاف ٦٩١/١ ، وينظر: المحرر الوجيز :١٨٣/١ ، والجامع لأحكام القرآن : ٤١/٢ ، وغرائب القرآن للنيسابوري : ٦٢٨/١ ، والفتوحات الإلهية :١/ ٨٣

(٦) البقرة : ٩١

(٧) التحرير والتنوير ٦٢١/١

كما يؤيد ذلك : سبب نزول الآية ؛ حيث إنها نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدوّ لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم ، فأنزل الله هذه الآية [١] ، أي : إن كانت عداوتهم لجبريل ؛ لأنه يَنزل عليك بالقرآن فإنما ينزله بإذن الله [٢]

ومن شواهد عود الضمير على ما لم يسبق له ذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[٣] الضمير في(فَجَعَلْنَٰهُن) يعود إلى غير مذكور. لكن لما دل السياق، وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجَعن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهن، وعاد الضمير عليهن، كما في قوله: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[٤] يعني: الشمس، على المشهور من قول المفسرين. [٥]

فالسياق يدل على المفسر وإن لم يسبق له ذكردل عليه

قوله سبحانه﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾[٦] وهي المضاجع التي يُضاجع عليها النساء

وقال الطاهربن عاشور:"الضميرعائد إلى غير مذكور في الكلام

---

(١) ينظر : جامع البيان للطبري : ١/ ٤٣١ ، وأسباب النزول للواحدي : ص ٢٨ ، ٢٩

(٢) ينظر : التفسير الكبير للرازي : ٣/ ٦١٣

(٣) سورة الواقعة : ٣٥ــ ٣٨

(٤) سورة ص ٣١، ٣٢

(٥) تفسير ابن كثير ٧ / ٥٣١

(٦) سورة الواقعة : ٣٤

ولكنه ملحوظ في الأفهام ،كقول أبي تمام في طالع قصيدة :

هُنّ عوادي يوسفٍ وصواحبه ....

وهذا أحسن وجه في تفسير الآية[١]

ومن الأمثلة أيضا قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾[٢]

اتفق الجمهور على أن الضمير في (بِهِ) عائد على الحرم والمسجد ،وإن لم يجر له ذكر، وسوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وأنه لم تكن لهم معجزة إلاّ أنهم ولاته والقائمون به

وكانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم، والذي سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت ، وأنه لم تكن لهم مفخرة غير هذا[٣]

كما أن لأسباب النزول دورها الذي لا يغفل في بيان ما يعود عليه الضمير وإن لم يذكر ، كما في قوله تعالى"﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾[٤]

أجمع المفسرو على أن الضمير في قوله﴿عِندَهُۥ﴾ يعود إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه والسياق والسباق يؤيد ذلك ، ومن قال إن الضمير في (عنده) يعود إلى الله بمعنى أن الله أراد أنه ينعم على عبده تفضلا منه وهو كذلك ، إلا أن ذلك بعيد المغزى ، لما فيه من تخصيص أبي بكر ، مع أن إنعام الله على عباده جميعا مؤمن وكافر لكنه في الأول حالا ومآلا ،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٢٧٦

(٢) سورة المؤمنون الآية: ٦٧

(٣) ينظر: جامع البيان١٩/٥٣،والكشاف٣/١٩٤، وأنوار التنزيل٢/١٠٨، والبحر المحيط ٨ / ٢٦٧

(٤) سورة الليل الآية ١٧- ١٩

وعلى الثاني في الدنيا فقط وفي الآخرة نقمة وبال عليه لأنه لم يعرف قدر المنعم ، ولم يتوجه إليه بالعبادة

وعود الضمير إلى أبي بكر يبين أن ما فعله من الاعتاق ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي طلب مرضاته سبحانه لا غير

" ذكر من سمع ابن الزبير وهو على المنبر يقول: كان أبو بكر يبتاع الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك، قال: ما منع ظهري أريد، فنزلت فيه - وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى - إلى آخر السورة.

وقال عطاء عن ابن عباس، أن بلالا لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسلح عليها وكان عبدًا لعبدالله بن جدعان، فشكى إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم ومائة من الابل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول: أحد أحد، فمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ينجيك أحدٌ أحدٌ، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن بلالا يعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده، فأنزل الله تعالى - وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى[١]

وما جاء في القرآن من عود الضمير على ما لم يجري له ذكر وارد في لغة العرب غناء بفحوى الكلام وسياقه ، ومن أمثلة ذلك قول حاتم الطائي:

أماوىّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشْرجت يوما وضاق بها الصدر[٢]

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٥٦.

(٢) ديوان حاتم الطائي صـــ ٥٠، ٥١، والكشاف ٤/ ٦٦٣، والدرر اللوامع ١/ ٤٤

فالضمير في (حشرجت) و(بها) يعود على (الروح) أو النفس، واستغنى عن ذكرها بذكر ما هي له جزء وهو الفتى[١]

وقال أبو كبير الهذلي:

ممَّن حملْن به وهن عواقدٌ ... حبك النطاق فشب غير مهبل

قوله :"وهن عواقدٌ حبك حكاية الحال وإن كان ذلك فيما مضى. ومثله قوله تعالى: " وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد . ويروى : " مما حملن به " أي هو من الحمل الذي حملن به. والضمير في حملن للنساء ولم يجر لهن ذكرٌ، ولكن لما كان المراد مفهوماً جاز إضمارها"[٢]

وقال المتنبي:

هنيئا لأهل الثغر رأيك فيـــهم وأنك حزب الله صرت لهم حزبا

وأنك رعت الدهر فيها وريبه فإن شك فليـــحدث بساحتها خطْبا

فالضمير في قوله(فيها) و(وساحتها) للأرض وهي غير مذكورة[٣]

قول الشاعر:

ممَّنْ حملْن به وهُنَّ عواقدٌ ... حُبُكَ النِّطَاقِ فشبَّ غيرَ مُهْبَلِ

الضمير في (حملن) للنساء ولم يجر لهن ذكرٌ، ولكن لما كان المراد مفهوماً جاز إضمارها ، والمعنى: هذا الفتى من الفتيان الذين حملت أمهاتهم بهم وهن غير مستعدات للفراش ولا واضعات ثياب الحفلة فنشأ محموداً مرضياً، لم يدع عليه بالهبل والثكل . وإنما قيل: ممن حملن به، لأنه رد الضمير على لفظ من، ولو رد على المعنى لقال بهم. وفي القرآن في

---

(١) تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد ٢/ ١١١، وينظر : الكشاف ٤/ ٦٦٣، والهمع ١/ ٦٥

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٨٤، ٨٥

(٣) ديوان المتنبي بشرح العكبري ١/ ٦٢، ٦٣

موضع: " ومنهم من يستمع إليك"، وفي آخر:" ومنهم من يستمعون إليك "[١]

وقال بعض بني عنبر:

إذا الكُماةُ تنحَّوْا أن يَنَالهُمُ ... حدُّ الظُّباتِ وصلناها بأيْدينا

قوله " وصلاها بأيدينا للسيوف ولم يجر له ذكر[٢]

وقال سالم بن وابصة

تفرَّى بيْضُها عنَّا فكُنَّا ... بَنِي الأجْلادِ منْها والرمالِ

الضمير في (بيضها) للأرض، كما يقال: من الأرض خلْقنا وإليها عوْدنا.

وفي القرآن: " ألم نجعل الأرض كفاتاً. أحياء وأمواتاً " . وساغ ذلك وإن لم يجر لها ذكرٌ لما لم يلتبس، لدلالة الكلام عليه.

والمعنى: تشقق بيض الأرض عنا، فنحن بنو حزونها وسهولها. وإنما يعني كثرتهم واتساع ديارهم، إذ كان الأرض لا تنقصم إلا إليها.[٣]

وقال جوَّاس الكلبي من بني عدي بن جناب

فكم من أميرٍ قبْل مَرْوان وابنِه ... كشفْنا غطاءَ الغمِّ عنهُ فأبْصرا

ومستسْلـــم نفَّسْن عنه وقد بَدت ... نواجذُهُ حتى أهلَّ وكبَّـــــرا

إذا افتخر القَيسيُّ فاذْكر بلاءَه ... بزرَّاعة الضَّحاك شرقيَّ جوْبرا

فما كان في قيٍ من ابن حفيظةٍ ... يُعَدُّ ولكنْ كلُّهمْ نهْبُ أشقَـــرَا

قوله (كم من أمير) أراد به معاوية وأشياعه. أي ذببنا دونه وأزلنا كا كان تراكم عليه من رواكد الظلم حتى أبصر رشده، وعادت إليه بصيرته، بعد أن كان تحير في أمره، والتبس عليه ما يتنقل فيه، فلا يعرف ما عليه مما له. وقوله ومستسلم عطفه على من أمير، والضمير في (نفَّسن)

---

(١) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام للمرزوقي ٦٥/١

(٢) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام للتبريزي ٥٢/١

(٣) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام للمرزوقي ٥٠٢/١، وينظر: شرح التبريزي ٢/ ١٢٠

للخيل ولم يجر لها ذكر، ولكن عرف منه المراد. يريد: وكم من منقاد لما دهمه، مستسلم للشر المفاجيء له والمحيط به، نفست خيلنا عنه بعد أن يبس ريقه، وتقلصت شفتاه فظهرت نواجذه، لما مني به من شدة البلاء، وجهد البأساء، حتى أهل، أي رفع بالحمد لله صوته، وأظهر شكره، وعظمه وكبره لما أعقب من الأمن عقيب الخوف، والسلامة بعد الهلك[١].

قال الشاعر:

لما رأوْها من الأجزاع طالعةً ... شُعثاً فوارسها شعثاً نواصيها

يقول لما رأوا الخيل بارزةً لهم ومفاجئةً إياهم من أجزاع الوادي – وهي جوانبها – مغبرة النواصي مغبرة الفرسان. وجواب لما فيما بعده. ويقال شعث شعثاً وشعوثةً، وهو أشعث وشعثٌ. وأضمر الخيل في قوله " لما رأوها " وإن لم يجر لها ذكرٌ، لأن الحالة الحاضرة تدل عليه[٢]

وقال عبد الله بن قيس الرقيات:

فدلها الحب فاشتفيت كما تشفى دماء الملوك من كلبه

فالضمير في (كلبه) يعود إلى الكلب المفهوم من فهوى الكلام وسياقه

وبهذا تبين لنا أن ذكر الضمير دون النص على مفسره اعتمادا على ما يدل عليه ومعونة السياق ، والفهم الدقيق أمر سائغ في لغة العرب ، والقرآن الكريم ، وأن في هذا أسرارا وأغراضا بلاغية

وأن ما جاء في القرآن من عود الضمير على ما لم يجر له ذكر فصيح وارد في لغة العرب ،والقرآن نزل بما يتكلمون به .

---

(١) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام للمرزوقي ٣/١٠٤٣، ١٠٤٤

(٢) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام للمرزوقي ١/ ١٩٤

المبحث الثاني

أولاً: عود الضمير المؤنث على المذكر

يلاحظ في أسلوب القرآن مطابقة الضمير لمرجعه في التذكير والتأنيث ــ غالبا ــ وما جاء مخالفا ففيه تناسب دقيق، وهذا ما توضحه الشواهد الآتية

١ــ قال تعالى:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ ﴾[١] الضمير في ﴿وَيَتَّخِذَهَا ﴾ مؤنث يعود على سبيل الله وهو دين الإسلام ،أو القرآن .

قال الزمخشري[٢]:"والضمير للسبيل؛ لأنها مؤنثة ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ ءامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [٣] ، ووردت مذكرة في قوله سبحانه: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لايَتَّخِذُوَه سَبِيلاً ﴾[٤]، و﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾[٥]

قيل : ويحتمل أن يعود على الأحاديث ، لأن الحديث اسم جنس بمعنى الأحاديث"[٦] والتوجيه الأول أقرب لوجود آيات من القرآن تؤيده

٢ــ قال تعالى:﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ

---

(١) سورة لقمان الآية: ٦

(٢) الكشاف ٥ / ٢٧٤ ، والبحر ٩٨/٩

(٣) سورة الأعراف : ٨٦

(٤) سورة الأعراف : ١٤٦

(٥) سورة الأعراف : ١٤٧

(٦) الفتوحات الإلهية ٢٧٢/٣

لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾[١] الضمير في﴿لها﴾ مخالف لما يعود إليه في الظاهر وهو قوله: ﴿خاضعين﴾ إذ الأعناق تكون خاضعة لا ﴿خاضعات﴾ لكن لما وُصفت الأعناق بالخضوع وهو وصف لأربابها في الحقيقة سوغ ذلك جمعه بالياء والنون الذي هو للعقلاء"[٢]

أي:عوملت معاملة العقلاء لما أسند إليهم ما يكون من فعل العقلاء كقوله تعالى ساجدين وطائعين في يوسف والسجدة وهو معنى لطيف[٣]

قال الزمخشري[٤] :"فإن قلت : كيف صحّ مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله ، كقوله : ذهبت أهل اليمامة ، كأنّ الأهل غير مذكور . أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء ، قيل : خاضعين ، كقوله تعالى : ﴿ لِى سَاجِدِينَ ﴾[٥] "

وأعرب الكسائي ﴿خاضعين﴾ حالا من الضمير المجرور لا من الأعناق [٦] وفي هذا فساد للمعنى عند تقديره ﴿فظلت أعناقهم لها﴾ حالة كونهم خاضعين؛لأن ذلك يقتضي أن يكونوا الخضوع واقعا أثناء التنزيل وقبل تدبر ما في الآية التي نزلت [٧]

وعلق الطيبي على قول الكسائي قائلا " وهذا بعيد في التحقيق ؛ لأنه

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٤

(٢) الفتوحات الإلهية٣/ ٢٧٢ وينظر: تفسير الجلالين صـــ٣٦٧

(٣) ينظر: الفتوحات الإلهية ٢٧٢/٣ وينظر: إملاء ما من به الرحمن للعكبري ٢/ ١٦٦

(٤) الكشاف ٢٩٩/٣ طبعة الريان ، وينظر: الفتوحات الإلهية ٢٧٢/٣

(٥) سورة يوسف : الآية : ٤

(٦) سورة الأعراف : ١٤٧

(٧) البيان في روائع القرآن د تمام حسان ١/ ٢٤٢

حينئذ جار على غير فاعل (ظلّت) فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل ، وإنما يقال : خاضعين لهم"[١]

ثانيا : عود الضمير المذكر على المؤنث

١ــ قال تعالى:﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾[٢] ، الضمير في ﴿ذكره) ،ومرجعه مؤنث وهو قوله ﴿تذكرة﴾،وكذا قوله سبحانه في موضع آخر:﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾[٣] والظاهر أنه لا تطابق بين الضمير ومرجعه، وبالنظر إلى السياق يتبين أن بينهما تناسبا في المعنى

قال الفراء "ذكر القرآن ثم رجع التذكير إلى الوحي"

وقال الزمخشري" التذكرة في معنى الذكر" وهذا من باب الحمل على المعنى ووافقه في هذا الرازي والجمل في الفتوحات[٤]

وفسر بعضهم الذكر بالقرآن الذين أعرض الكفار عن سماعه [٥]

ومن أعاد الضمير على القرآن ، ولم يسبق له ذكر يكون المعنى أن في القصة موعظة ، فمن شاء حفظ القرآن وتدبره ؛ليزداد وعظا ورشادا ، وفي عود الضمير على غير مذكور غناء بفحوى الكلام أمر مستساغ في اللغة العربية وارد على ألسنة أهلها[٦]

---

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب صـــ ٥٢٩ ، ٥٣٠

(٢) سورة المدثر الآية : ٥٤، ٥٥

(٣) سورة عبس الآية ١١،١٢

(٤) الكشاف ٤/ ٢٨٥، مفاتيح الغيب ٣١، ٥٨، ٥٩ ، والفتوحات الإلهية وحاشـيته تفسـير الجلالين ٤/٤٨٨

(٥) ينظر:التحرير والتنوير ١٦/ ١٠٢

(٦) ينظر: مع القرآن في دراسة مستلهمة للشيخ/ علي النجدي ناصف ١٧٣

وأرى أن كلا التوجيهين لائق ،وهذا من ثراء العطاء القرآني، ودليل إعجازه

وقال جلال الدين المحلي الضمير في ﴿إنها﴾ يعود إلى السورة أو الآيات ﴿تذكرة) أي: عظة للخلق (فمن شاء ذكره﴾ حفظ ذلك فاتعظ به [١]

وفسر الكرماني وجه المخالفة بين الضمير ومرجعه في سورة المدثر إلى القرآن فهو تذكرة ، وفي سورة عبس الضمير راجع إلى آيات القرآن [٢]

وأومأ محقق أسرار التكرار إلى نكتة لطيفة قائلا:"يحتمل أن تكون التذكرة الثانية ــ في سورة عبس ــ متوجه إلى قصة الأعمى والآيات التي نزلت فيها توجيها للمؤمنين ، وإلى وسائل تربية المسلمين ، أما الأولى فللقرآن كله ، لأن المقام مقام الكلام عن الإيمان والكفر لا طرائق تربية المسلمين "[٣]

والمقام دليل على المقاصد البلاغية فآيتي المدثر قد سُبقت بما يدل على نفور المخاطبين ، وإعراضهم عن التذكرة وجاء هذا في سورة الاستفهام الإنكاري﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾[٤] وأعقبهما بما يدل على أن التذكرة لم تؤتي ثمارها فيهم ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[٥] أما آيتا سورة عبس فالتذكرة فيها محددة بموقف العتاب للنبي ﷺ

---

(١) الفتوحات الإلهية وبهامشه تفسير الجلالين ٤٨٨/٤

(٢) أسرار التكرار في القرآن صـــ ٢٤٢

(٣) حاشية أسرار التكرار في القرآن صـــ ٢٤٢

(٤) سورة المدثر: الآية ٤٩

(٥) سورة المدثر: الآية ٥٦

وعلى هذا يكون التلهي عن ابن أم مكتوم وعتاب الله عليه موعظة لمن شاء أن يتعظ إذا وعاه وتدبره

وقال الطاهر ابن عاشور" فيكون ضمير ﴿ إنها تذكرة ﴾ عائداً إلى الآيات التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك المجلس ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن .

ويؤيد هذا الوجهَ قولُه تعالى عَقبه : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾[١] حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث

ومعلوم أن الآتين سبقتا بـــ(كلا﴾ الدال على الردع والزجر لكن الردع في سورة المدثر للكفار عن إعراضهم عن القرن تكذيبا له ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾[٢] بخلاف الردع في سور عبس إذ هو خاص بآياتها الأولى المتعلقة بالعتاب فالآيتان وإنا اتحدا في المعنى لكن مقاصدهما مختلف تبعا للمقام والهدف الخاص [٣]

فالضمير (إنها) يعني:الموعظة وقيل: آيات القرآن تذكرة (أي موعظة للخلق) فمن شاء (أي من عباد الله) ذكره (أي اتعظ به يعني القرآن ثم وصف جلالة القرآن ، ومحله عنده فقال عز وجل) في صحف مكرمة (يعني القرآن في اللّوح المحفوظ) مرفوعة (أي رفيعة القدر عند الله ، وقيل مرفوعة في السّماء السابعة) مطهرة[٤]

وفي سورة المدثر"إنه تذكرة (يعني إنه عظة عظيمة) فمن شاء ذكره

---

(١) سورة عبس: الآية ٥١٧

(٢) سورة المدثر: الآية ٥٢

(٣) ينظر : أسلوب الالتفات في البلاغة العربية ١٣٠، ١٣١

(٤) تفسير الخازن ٦/ ٢٠٨

أي:اتعظ به فإنما يعود نفع ذلك عليه"[١]

فالضمير في سورة ﴿عبس﴾ عند الزمخشري راجع إلى الحدث ﴿تذكرة﴾ ،وهي مصدر بمعنى الحدث ، وهو مذكر أي أن تذكرة مؤنثة اللفظ مذكّرة المعنى ، والتأويل على هذا أن الذي كان من التلهي عن ابن أم مكتوم وعتاب الله موعظة لمن شاء أن يتعظ إذا وعاه وتدبره

أما الآخرون فمرجع الضمير عندهم هو القرآن وإن لم يسبق له ذكر لدلالة المقام عليه والآيات التي أعقبت الضمير تدل عليه، والتقدير على هذا أن في هذه القصة موعظة فمن شاء حفظ القرآن وتدبره ؛ ليزداد وعظا وإرشادا

وقال الطاهر بن عاشور[٢] "والضمير في ﴿ذكره﴾ في آية المدثر يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ إنه ﴾، وهو القرآن فيكون على الحذف والإيصال وأصله : ذَكَر به .

ويجوز أن يعود إلى الله تعالى وإن لم يتقدم لاسمه ذكر في هذه الآيات لأنه مستحضَر من المقام على نحو قوله : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾[٣] [المزمل : ١٩]

ووافقه الرازي فالتذكرة عنده بمعنى الذكر والوعظ ،وقال صاحب النظم ﴿إنها تذكرة﴾ يعني القرآن ، والقرآن مذكّر إلا أنه لم جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة ، ولو ذكّره لجاز ، كما قال في موضع آخر ﴿كلا إنه تذكرة) والدليل على أن قوله ﴿إنها تذكرة) المراد به القرآن

---

(١) تفسير الخازن ٦/ ١٨٠

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٦/ ١٠٢

(٣) سورة المزمل الآية: ١٧

قوله﴿فمن شاء ذكره﴾ [١]

وقال الطاهر في تفسيره والضمير الظاهر في ذكره } يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ إنه ﴾ وهو القرآن فيكون على الحذف والإيصال وأصله : ذَكَر به .

ويجوز أن يعود إلى الله تعالى وإن لم يتقدم لاسمه ذكر في هذه الآيات لأنه مستحضَر من المقام على نحو قوله : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾.

وذكر الخطيب الإسكافي وجها آخر وهو أن الضمير في (تذكرة﴾ في سورة المدثر جاء مؤنثا رعاية للفاصلة حيث إن الآيات قبلها فواصلها بالهاء [٢]﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾[٣] ، و﴿صُحُفًا مُّنَشَّرَةً كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [٤]

وهذا التعليل للمخالفة بين الضمير ومرجعه ليس مقبولا ؛فالبيان القرآني لا يقوم على الاعتبار اللفظي المحض ، وإنما تكون المخالفة لغرض معني بلاغي ، يلتحم مع الأداء اللفظي لا أن تكون المتابعة اللفظية هي الأساس.

١ــ قال تعالى:﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٣١/ ٥٨، ٥٩

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل للأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي تح. د/ محمد مصطفى آيدين ٣/ ١٣١٠، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م جامعة أم القرى البحوث العلمية

(٣) سورة المدثر الآية ٥٠، ٥١

(٤) سورة المدثر الآيات ٥٢ــ ٥٥

وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾[١] الضمير في ﴿منه﴾ يعود إلى المقسوم، أو قسمة الميراث قال بذلك الطبري[٢] وابن كثير[٣] وقيل: هو الميراث نفسه[٤]

وقال الألوسي" ﴿ فارزقوهم مّنْهُ ﴾ أي:أعطوهم شيئاً من المال، أو المقسوم المدلول عليه بالقسمة ، وقيل : الضمير لـــ(ما) وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة تطييباً لقلوب المذكورين وتصدقاً عليهم " وهذا من باب الحمل على المعنى فالضمير في الآية عائد على معنى القسمة وهو ما تقرره اللغة العربية[٥]

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ قد قال العَوْفي عن ابن عباس: (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ)، وهي قسمة الميراث. وهكذا قال غير واحد، والمعنى على هذا لا على ما سلكه أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، بل المعنى: أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يَرثون، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوق [٤] إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون، فأمر الله تعالى -وهو الرءوف الرحيم -أن يُرضَخ لهم شيء من الوسَط يكون برا بهم [٥] وصدقة عليهم، وإحسانا إليهم، وجبرا لكسرهم، كما قال الله تعالى: (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) [٦] ،وذم الذين ينقلون المال خفية؛ خشية

---

(١) سورة النساء الآية : ٨

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢١

(٣) ينظر: الفتوحات الإلهية ٣٥٨/١

(٤) التحرير والتنوير ٢٥١/٤

(٥) تفسير الألوسي ٣ / ٤٤١

(٦) سورة الأنعام:١٤١

أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة، كما

أخبر عن أصحاب المحاويج﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾[١]

أي: بليل

٢ــ قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٢]

١- الضمير في (بَدَّلَهُ) ، مفرد مذكر، وعاد على (الوصية) ، وهي مفردٌ مؤنث ، وفي هذا مخالفة في الظاهر، وفي بيان الرابط المعنوي ، والتناسب الخفي قولان:

أولهما:

أن (الوصية) في الآية الكريمة بمعنى (الإيصاء) ، وهو مفردٌ مذكرٌ ؛ ولهذا عاد الضمير عليه ؛ حملاً على المعنى، وعليه فلا مخالفة ، قال الواحديُّ : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ ، أي بدل الإيصاء وغيره من وصي وولي وشاهد بعدما سمعه عن الميت "[٣] ، وقال الزمخشريُّ : " ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ فمن غيَّر الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود "[٤].

ثانيهما :

إن الهاء عائدة على مفهومٍ من السياق يدلُ عليه الظاهر ، وهو أمر

---

(١) سورة القلم الآية : ١٧

(٢) البقرة ١٨٠، ١٨١

(٣) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ١ / ١٤٩ .

(٤) الكشاف ١/ ٢٤٥ ، وينظر: التبيان في إعراب القرآن ١ / ٧٨ ، وتفسير النسفي ١/ ٩٣، والبحر المحيط ، ٢/ ١٦٥ ، وتفسير الجلالين ١/ ٣٧ ، وروح المعاني ٢/ ٥٥ ،

الميت ، فالله تعالى يقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ ﴾ ، فالهاء عائدة على أمر الميت

قال الطبريُّ : " فإن قال لنا قائلٌ : وعلامَ عادت الهاءُ في قوله : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾ ؟ قيلَ على محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر ، وذلك هو أمر الميت وإيصاؤه إلى من أوصى إليه ، بما أوصى به ، لمن أوصى له "(١)، ولفظ (أمر الميت) مفردٌ مذكرٌ ، وبه يتم التطابقُ بين الضمير ومرجعه إفراداً وتذكيراً .

وذكر أبو حيان أن الضمير في الآية راجعٌ على " أمر الله تعالى في هذه الآية "(٢)، ورد الطبري رحمه الله قائلا: " وإنما قلنا: إن الهاء في قوله : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾ عائدةٌ على محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر ؛ لأنَّ قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ ﴾ ، من قوله تعالى ، إن تبديل المُبَدِّل إنما يكون لوصية الموصي ، فأما أمرُ الله بالوصية ، فلا يقدرُ هو ولا غيره أن يُبدله "(٣).

وبعد فإن أول الوجهين أولى ؛ لأن الحملَ على المعنى جارٍ في لسان العرب ، يقول أبو حيان : " والتذكير على المعنى واردٌ في لسانهم "(٤).

٤ــ قال تعالى ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾(٥)

---

(١) جامع البيان ٢ / ١٢٢ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ١٦٥ .

(٣) جامع البيان ، ٢ / ١٢٢ .

(٤) البحر المحيط ، ٢ / ١٦٥ وينظر : التبيان في إعراب القرآن ١ / ٧٨

(٥) سورة النحل الآية: ٦٦

أنعم الله على عباده بالنعم التي لا تُعد ولا تحصى قال تعالى :﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [١] ،ومنها آيات تدل على عظم قدرة الله في خلقه ، نحو إخراجه اللبن السائغ من مكان لا يتوقع أن يخرج منه ، فاللبن يأتي من بين الفرث والدم دون امتزاج ،أو اختلاط جزء منهما ،أو من أحدهما باللبن ، إنها القدرة التي لا يملكها إلا الله عز وجل ،ولا يملك الإنسان أمام هذا الإحكام في الصنع إلا أن يُسبح الله ، ويحمده ،وتلتقي هذه الآية مع آية "المؤمنون" ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[٢]

والناظر في الآتين يجد توافق معناهما ، واتحادهما في كثير من المفردات ، والنسج ، لكنّ بينهما فروقا دقيقة في النظم منها: أن آية النحل سمت الشراب وحددت مسلكه ووصفه بالصفاء والنقاء ، وطيب المذاق ، بخلاف آية المؤمنون التي اكتفت بذكر النعمة إجمالا ، وفرق آخر يسترعي الانتباه وهو مخالفة الضمير لمرجعه في آية النحل حيث أُعيد الضمير المذكَّر في ﴿بُطُونه﴾ على (الأنعام) المؤنثة أما آية المؤمنون فجاء الضمير موافقا لمرجعه في التأنيث

وبالرجوع إلى كلام العلماء في هذه الناحية نرى أنهم أرجعوا المخالفة إلى الترادف بين النعم والأنعام، أو النظر إلى توافق المعنى في الإفراد والجمع ، أو أن التذكير يعود إلى معنى الجمع والتأنيث إلى معنى الجماعة

---

(١) سورة إبراهيم من الآية: ٣٤

(٢) سورة المؤمنون الآية: ٢١

قال الفراء:"وأما قوله (مما في بطونه) ، ولم يقل : في بطونه ــ فإنه قيل ــ والله أعلم : إن النعم والأنعام شيء واحد ، وهما جمعان ، فرجع التذكير إلى معنى النعم ، إذ كان يؤدي عن الأنعام ، وقال الكسائي (نسقيكم مما في بطونه) : بطون ما ذكرنا ، وهو صواب ، وأنشدني بعضهم : مثل الفراخ نتفت حواصله [١]

وقال صاحب الكشاف "ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال ، كقولهم : ثوب أكياش؛ ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً . وأمّا (فِي بُطُونِهَا) في سورة المؤمنين : فلأنّ معناه الجمع . ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان ، أحدهما : أن يكون تكسير نعم كـ(أجبال) في (جبل) ، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم ، فإذا ذكر فكما يذكر «نعم» في قوله :

في كُلِّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَه ... يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتَنْتِجُونَهْ

وإذا أنث ففيه وجهان : أنه تكسير نعم . وأنه في معنى الجمع"[٢]

وعلل أبو حيان عود الضمير مذكرا في آية النحل بقوله" وأعاد الضمير مذكراً مراعاة للجنس ، لأنه إذا صح وقوع المفرد الدال على الجنس مقام جمعه جاز عوده عليه مذكراً كقولهم : هو أحسن الفتيان وأنبله ، لأنه يصح هو أحسن فتى ، وإن كان هذا لا ينقاس عند سيبويه ، إنما يقتصر فيه على ما قالته العرب.

وقيل : جمع التكسير فيما لا يعقل يعامل معاملة الجماعة ، ومعاملة الجمع ، فيعود الضمير عليه مفرداً.

---

(١) معني القرآن للفراء ٢/ ١٠٨، ١٠٩

(٢) الكشاف ٣/ ٤٤٦، ٤٤٧، والدر المصون ٣٢٦/٨

كقوله :

مثل الفراخ نبقت حواصله . . . [١]

وقال الألوسي:" وضمير (بُطُونِهِ) للأنعام وهو اسم جمع واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده باعتبار لفظه وتأنيثه وجمعه باعتبار معناه ، ولذا جاء بالوجهين في القرآن وكلام العرب "

وعلق البقاعي على سر المخالفة بقوله:"ولما كان الأنعام اسم جمع ، فكان مفرداً كما نقل ذلك سيبويه ، وذكر المسقي وهو اللبن ، لما اقتضاه سياق السورة من تعداد النعم فتعينت إرادة الإناث لذلك ، فانتفى الالتباس مع تذكير الضمير ، قال تعالى : (مما) أي من بعض الذي { في بطونه } فذكّر الضمير لأمن اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها سورة النعم بخلاف ما في المؤمنون" [٢]

وقال القاضي ابن العربي : إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة ، فذكر في آية النحل باعتبار لفظ الجمع المذكر، وأنّث في آية المؤمنون باعتبار تأنيث لفظ الجماعة ، وينتظم المعنى بهذا التأويل انتظاما حسنا .

والتأنيث باعتبار الجماعة والتذكير باعتبار الجمع أكثر في القرآن واللغة من رمل يبْرين ومها فلسطين[٣]

واستلهم الكرماني سر المخالفة في آية النحل ، وتوافقه في آية المؤمنون استنادا إلى السياق فقال :" إن الضمير في آية النحل يعود إلى

---

(١) البحر ٥/ ٤٩٢

(٢) نظم الدرر ١٩٣/١١

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١

البعض وهو الإناث ؛ لأن اللبن لا يكون للكل فصار تقدير الآية : وإن لكم في بعض الأنعام . بخلاف ما في المؤمنين ، فإنه عطف عليه ما يعود على الكل، ولا يقتصر على البعض ، وهو قوله ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا ﴾[١] وهذا رأي وجيه

ومن شواهد تذكير الضمير بعد تأنيثه قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾[٢] قوله ﴿ وَٰحِدَةٍ ﴾ ﴿مِنْهَا ﴾﴿ زَوْجَهَا ﴾ على التأنيث، وقوله ﴿لِيَسْكُنَ﴾ ﴿ تَغَشَّىٰهَا ﴾ على التذكير

والغرض من هذه المخالفة أن السكون والغشيان من صفات المذكر فلما قوى أمرُ التذكير بهذا المعنى اقتضى ذلك حسن مراعاته[٣]

وقال الزمخشري:"وقال :. ﴿ لِيَسْكُنَ ﴾ فذكر بعد ما أنث في قوله : ﴿ واحدة﴾ ﴿منها زوجها﴾ ، ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم ؛ ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى"[٤]

ويمكن القول إن المطابقة بين الضمير ومرجعه تذكيرا وتأنيثا ، هي الغالبة في القرآن الكريم ، وما جاء في ظاهره مخالفاً لهذه المطابقة ، فإنه راجعٌ إلى الحمل على المعنى ، كما مرَّ من الشواهد

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٢١، ٢٢

(٢) سورة الأعراف من الآية: ١٨٩

(٣) ينظر: أمالي ابن الحاجب ٢/ ٨٥٨ ، وينظر: نظم الدرر ١٨٩/٨، ١٩٠

(٤) الكشاف ٢/ ٥٤٠، ٥٤١ العبيكان

وأن أساليب القرآن جاءت ، على وفق ما نطق به العرب لفظا وأسلوبا

وإذا أبدع القرآن فأعجز فليس معنى هذا أنه خرج عن وفق قوانين كلام العرب النحوية ،وإنما هو الإبداع في تأليف وصوغ الكلم في الأساليب الحكيمة ، وهى مع هذا لا تخرج عن رعاية تلك القوانين.

هذا ما قصدنا الوقوف عليه من شواهد القرآن للدليل على فكرتنا، آملين من الله التوفيق والسداد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الخاتمة

بعد هذه المعايشة لشواهد عود الضمير على مخالفه في البيان القرآني ، نورد بعض النتائج التي وقفنا عليها في هذا البحث

١ــ أن معظم شواهد عدم المطابقة بين الضمير ومرجعه محمول على المعنى وفي هذا دعوة للتدبر في نظم القرآن، والوقوف على أسراره، فضلا عن أن هذا من تنوع الخطاب القرآني الذي يرعي مستويات التفكير، وإعمال العقل.

٢ــ تنوعت الأغراض البلاغية في هذه المخالفة فكان منها التعظيم ، والاهتمام ، والاختصاص، وإثارة الفكر ..الخ

٣ــ الربط بين الضمير ومرجعه لا يقف عند الجملة الواحدة أو محل الشاهد ، بل يمتد ليشمل الربط أكثر من آية حتى يوقف على الغرض البلاغي ، والرابط المعنوي.

٤ــ أن علم المناسبة ،أو التناسب نفيس في بابه ، عظيم في تناوله ؛ لكونه يقف على كيفية اتساق المعاني ، والتلاحم بين أجزاء الجمل والآي ، وقد اعتنى به علماؤنا الأوائل ، وأبرزوا الكثير من دره ، وما يزال البحث في هذا الباب في حاجة للاستزادة منه ، ولا عبرة لمن رده ، أو قلل من قيمته.

٥ــ تتعدد الروافد للوقوف على التناسب بين الضمير ومرجعه المخالف له في الظاهر،وتحديدهمنها: أسباب النزول، والساق ، وقرائن الأحوال اللفظية والمعنوية، والوقوف على تراكيب اللغة العربية.

٦ــ أن مجيء الضمير المخالف لمرجعه في الظاهر مسلكٌ عربي فصيح، ونهج بياني عال ،لهج به العرب ، ولاكت به ألسنتهم، وإن لم يبلغ مبلغ الوجه الأول في شيوعه بينهم؛ لأنه لا يأخذ مأخذه في كل مقام، ولا يجري معه الذهن إلى الغرض أينما وقع؛ بل يحتاج إلى قوة من البلاغة يلاحظ فيه كيف يكون إرجاع الضمير إلى المعنى باعتبار مرجع غير مذكور، أو مخالفه تذكيرًا وتأنيثا .

ثبت المصادر والمراجع

(القرآن الكريم) .

١ــ الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، ت ٩١١ هـ ، تحقيق : محمد العربي ، القاهرة ، ط /١ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

٢ــ أحكام القرآن لابن العربي المالكي ، تحقيق/ د. عامر حسن صبري ، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥

٣ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبو السعود محمد بن محمد العمادي ، ت ٩٥١ هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٤ــ أسباب النزول ، لأبي الحسن الواحدي النيسابوري ، تخريج / عصام بن عبد المحسن الحميدان ، دار الإصلاح بالدمام ، المملكة العربية السعودية،الطبعة الثاني ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م

٥ــ أسرار التكرار في القرآن ، محمد بن حمزة بن نصر الكرماني ، ت ٥٠٥ هـ ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط / ٢ ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

٦ــ أسلوب الالتفات في البلاغة العربية د/ حسن طبل ، دار الفكر العربي بالقاهرة ، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م

٧ــ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي ، ت ١٣٩٣ هـ ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

٨ــ أمالي ابن الحاجب ،دراسة وتحقيق/ د. فخر صالح سليمان قدارة ، دار الجيل ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م

٩ــ الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، حققه د. عبد الحميد هنداي ، مؤسسة المختار، الطعة الثانية ، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤

١٠ــ البحر المحيط في التفسير ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان

الأندلسي الغرناطي ، ت ٧٥٤ هـ ، طبعة جديدة بعناية : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م .

١١- البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله محمد بن بهاد بن عبد الله الزركشي ، ت ٧٩٤ هـ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١ م .

١٢- البيان في روائع القرآن د/ تمّام حسان مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ الهيئة العامة للكتاب

١٣- التبيان في إعراب القرآن ، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي البقاء العكبري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية .

١٤- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور دار سنون للنشر والتوزيع ، تونس ١٩٩٧م

١٥- التذييل والتكميل في شرح التسهيل لأبي حيان الأندلسي ، حققه د. حسن هنداوي ، دار القلم دمشق

١٦- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، ابن مالك ، ت ٦٧٢ هـ ، تحقيق : محمد كامل بركات ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧ م .

١٧- التعريفات للجرجاني، علي بن محمد بن علي ، حققه وقدم له ووضع فهارسه /إبراهيم الإبياري ، دار الريان للتراث بدون

١٨- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد لمحمد بدر الدين الدماميني، تح/د. محمد عبد الرحمن بن محمد المفدى ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

٩- تفسير ابن كثير ، تحقيق/ مصطفى السيد محمد وآخرين ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، بدون

٢٠ـ تفسير أبيات المعاني من شعر المتنبي ، اختصار أبي المرشد سليمان بن علي المعري ، حققه/ د. مجاهد محمد محمود الصواف ، د. محمد فياض عجيل دار المأمون للتراث ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م

٢١ـ تفسير البيضاوي ، البيضاوي ، ت ٧٩١ هـ ، دار البيان العربي القاهرة بدون

٢٢ـ تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، ت ٧٧٤ هـ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

التفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب

٢٣ـ تفسير المنار ، للسيد محمد رضا ، الطبعة الثانية ، ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م

٢٤ـ تفسير النسفي ، أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود النسفي ، ت ٧١٠ هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

٢٥ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفرٍ محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ، ت ٣١٠ هـ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٢٦ـ الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكرٍ بن فرج القرطبي ، ت ٧٦١ هـ ، تحقيق : أحمد عبد العليم البردوني ، دار الشعب ، القاهرة ، ط / ٢ ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .

٢٧ـ حقيقة ضمير الغائب ، الشيخ/ محمد الخضر حسين ،مجلة الهداية الإسلامية ، المجلد الأول ، ١٣٤٧

٢٨ـ الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، ت ٣٩٢ هـ ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، ط / ٢ ، بيروت .

٢٩ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، للسمين الحلبي تح/د. أحمد الخراط ، دار القلم دمشق

٣٠ــ دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمة ، دار الحديث ، القاهرة .

٣١ــ درة التنزيل وغرة التأويل للأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي تح. د/ محمد مصطفى آيدين، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م جامعة أم القرى البحوث العلمية

٣٢ــ ديوان الحماسة لأبي تمام شرح أبي علي المرزوقي ، علق عليه / غريب الشيخ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م

٣٣ــ ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق وشرح : د. محمد يوسف نجم ، دار صادر – دار بيروت ، بيروت ، ١٣٧٨ هـ – ١٩٥٨ م

٣٤ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل محمود الألوسي ، ت ١٢٧٠ هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٣٥ــ شرح التسهيل ،لابن مالك ، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا ، وطارق فتحي السيد ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

٣٦ــ شرح الرضي على الكافية تح/ إميل يعقوب ، دار الكتب العلمية

٣٧ــ شرح المفصل لابن يعيش ، مكتبة المتنبي القاهرة بدون

٣٨ــ الضمائر في اللغة العربية ، د. محمد عبد جبر ، دار المعارف ١٩٨٠م

٣٩ــ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ضمن ما أسموه بشروح التلخيص ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

٤٠ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق ، ت/ محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل بيروت بدون

٤١ــ فتح القدير للشوكاني ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ١٤٠٣هـ ــ ٩٨٣م

٤٢ــ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي رسالة دكتوراه للباحث / صالح عبد الرحمن الفايز، ١٤١٣هـ ــ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كلية القرآن الكريم

٤٣ــ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي رسالة ماجستير للباحث / راجي محمد موسى ١٤١٦هـ ــ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كلية القرآن الكريم

٤٤ــ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة بدون

٤٥ــ فلسفة الضمير بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة للأستاذ/ علي النجدي ناصف ، ١٩٦٦

٤٦ــ الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب ، نور الدين عبد الرحمن الجامي ، ت ٨٩٨ هـ ، دراسة وتحقيق : د. أسامة طه الرفاعي ، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

٤٧ــ في ظلال القرآن لسيد قطب ، دار الشروق

٤٨ــ الكتاب لسيبويه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م

٤٩ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

للزمخشري ،طبعة الريان للتراث الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨١

٥٠ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

للزمخشري ،تحقيق وتعليق الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي معوض ، مكتبة العبيكان ،الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م

٥١ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ،لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي قابله على نسخ خطية ، ووضع فهارسه د، عدنان درويش ، محمد المصري مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٨م

٥٢ـ لسان العرب لابن منظور دار المعارف

٥٣ـ اللغة العربية معناها ومبناها – د / تمام حسان : ص ١١٠ ، ١١١ – ط دار الثقافة – ١٩٩٤م

٥٤ـ مرجع الضمير في القرآن الكريم د. محمد حسنين صبرة ، دار غريبالقاهرة ٢٠٠١م

٥٥ـ مع القرآن في دراسة مستلهمة للشيخ/ علي النجدي ناصف دار المعارف ، بدون

٥٦ـ معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، ت ٥١٦ هـ ، تحقيق : خالد العك ومروان سوار ، دار المعرفة ، بيروت ، ط / ٢ ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٧٨ م .

٥٧ـ معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، ت ٢٠٧ هـ ، تصدير : محمد أبو الفضل إبراهيم ، عالم الكتب ، بيروت ، ط / ٢ ، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م

٥٨ـ معاني القرآن الكريم ، أبو جعفر النحاس ، ت ٣٣٨ هـ ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط / ١ ، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م .

٥٩ـ معاني القرآن للفراء عالم الكتب بيروت لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣

٦٠ـ معجم القراءات د، عبد اللطيف الخطيب ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م

٦١ـ مغني اللبيب ، جمال الدين بن هشام الأنصاري ، ت ٧٦١ هـ ، حققه وعلق عيه : د٠ مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، وراجعه : سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، بيروت ، ط / ٦ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٦٢ـ مفاتيح الغيب للرازي ، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م

٦٣ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ، ت ٧٠٨

٦٤ـ من أسباب اختلاف المفسرين المتعلقة بمرجع الضمير د. صالح ناصر الناصر ،مجلة الحكمة محرم ١٤٢٨

٦٥ـ من بلاغة القرآن في التعبير بالغدو والآصال والعسي والإبكار ،د/ محمد عبد العليم دسوقي بدون

٦٦ـ نظرية اللغة في النقد العربي ، د. عبد الحكيم راضي ، مكتبة الخانجي بمصر ، بدون

٦٧ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لبرهان الدين أبي الحسن البقاعي ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ، بدون

٦٨ـ النكت في القرآن ،لأبي الحسن علي بن فضال المجاشعي ، تح/د.إبراهيم الحاج علي ، مكتبة الرشد ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦

٦٩ـ الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه ، لمكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) ، نشر

جامعة الشارقة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م

٧٠ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي تحقيق / أحمد شمس الدين ، مشورات محمد علي بيضون بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م

٧١ـ الوجوه والنظائر للدامغاني ، تقديم عزبي عبد الحميد علي،دار الكتب العلمية بيروت لبنان، بدون

٧٢ـ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ، ت ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم – الدار الشامية ، دمشق – بيروت ، ط / ١ ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .

ملخص باللغة العربية

إن التناسب بين الضمير ومرجعه المخالف له في الظاهر،أو الخارج عن أصل القاعدة،في البيان القرآني أحد وجوه الإعجاز ، ولا يوقف عليه إلا بإعمال الفكر ، والتدبر القائم على تفهم لغة العرب ، وأسلوب بيانه في نقل صور المعاني إلى نفوس المخاطبين دون التقيد بمساق تعبيري واحد ، ويؤكد البحث أن القرآن الكريم في نسجه لم يخالف قوانين اللغة .